سلسلة إصدارات مؤسسة ديوان المسلم ٢٠

وما بدلوا تبديلا

الأستاذ الدكتور
ناصر بن سليمان العمر

الطبعة الثانية

ⓒ مؤسسة ديوان المسلم، ١٤٣٦هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العمر، ناصر بن سليمان

وما بدلوا تبديلا./ ناصر بن سليمان العمر - ط٢ -

الرياض، ١٤٣٦هـ

١٨٠ ص: ١٧ × ٢٤ سم

ردمك: ٢-٢- ٩٠٦١٩-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن - التفسير الحديث ٢- القرآن -

مباحث عامة ٣- الوعظ والإرشاد أ. العنوان

ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٣٦/٥٢٦

رقم الإيداع: ١٤٣٦/٥٢٦

ردمك: ٢-٢-٩٠٦١٩-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الثانية

١٤٣٦هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُه ونستعينُه، ونستغفِرُه ونتوبُ إليه، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يُضلل فلا هاديَ له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحدهُ لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُه ورسوله.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ [النساء: ١]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١ ﴾ [الأحزاب: ٧٠].

أمَّا بعدُ:

يُعالج موضوعُ هذا الكتاب واحدةً من مشكلاتنا الكبيرة، أسميتُها مشكلة الاطِّراد والاضطراب في المنهج.

والاطِّراد والاضطرابُ كلمتان متقاربتان في الحروف وفي المخارج، لكنهما متباعدتان في الحقيقة والمقصد.

وقد عايشتُ وعانيت هذه المشكلة التي يُعالجها هذا الكتاب، منذ نحو عقد، عندما شعرتُ بوجودها، ثمّ عكفت عام ١٤٢٤هـ، على كتابة تصوُّرٍ أوّليٍّ عنها، أُحاول أن أستبِقَ فيه الواقع والوقائع، يحدوني

حديثُ حذيفة رضي الله تعالى عنه: «كنتُ أسأله -أي: النَّبيَّ ﷺ- عن الشَّر مخافةَ أن يدركني»[1]، وعندما فرغتُ منه، رأيتُ أن أتريَّث في نشره، مترقّباً الظُّروف والأحوال المناسبة، ثم أرسلتُه إلى عددٍ من المشايخ وطلاب العلم، فأكرموني وزوَّدوني بملحوظاتهم وإضافاتهم.

ومن ناحيةٍ أخرى، كان أصلُ الموضوع قد طُرح للحوار بموقع المسلم[2]، ضمنَ موضوع «قضيَّةٌ للحوار»، قبل أن أنشرَ ما كتبتُه، فوردت إلينا - بحمد الله - مشاركاتٌ وكتاباتٌ عديدة، أسهمت إسهاماً مقدّراً في إثراء الموضوع، وإغنائه بالرُّؤى والأفكار، ثمّ ابتداءً من ليلة السَّادسَة عشرة من شهر ربيع الأول، من عام ١٤٢٦هـ، بدأتُ إلقاءَ سلسلة من الدُّروس الأسبوعيّة، بجامع خالد بن الوليد، بمدينة الرّياض، حول موضوع هذا الكتاب تحت عنوان ﴿وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾، إشارةً إلى مدلول قوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾.

ولأنّ القضية التي يُعالجها هذا الموضوع تعنينا جميعاً، حرصتُ عند ابتداء تلك الدُّروس، على تجديد الدَّعوة، إلى بعض المشايخ وطلاب العلم، لكي يرفُدوني بما يَعِنُّ لهم من مشاركات، سواءٌ أكانت إضافاتٍ، أم أسئلةً، أم اقتراحاتٍ عبر الفاكس، أو عبر عنوان موقع المسلم، أو بوضعها في صندوق استقبال المشاركات والأسئلة، بجامع خالد بن الوليد. وكانت في ذهني تجربةُ محاضرات الفتور التي ألقيتُها على مدى

(١) رواه البخاري: (٣٦٠٦)، ورواه مسلم: (١٨٤٧).

(٢) http://www.almoslim.net

ثلاثة أيام متوالية في عام ١٤١٤هـ، حيث سُجِّلت في ثلاثة أشرطة، والشَّاهد أنَّني بعد أن ألقيتُ المحاضرة الأولى منها، جاءتني مساهماتٌ، وإضافات، ورسائل، أثْرَت الموضوع أيَّما إثراء، فأضَفْتُ ما كان مناسباً منها في المحاضرتين التاليتين، وشكرتُ لهم، ودعوتُ الله أن يجزيَهم خير الجزاء. وقد بلغ عدد هؤلاء الذين شاركوا في موضوع الفتور، من كبار العلماء، والمشايخ، والدُّعاة، وطلاب العلم قرابةُ مئةِ شخص، تراوحت مساهماتُهم ما بين بضعة أسطر، وثلاثين صفحةً.

ثمّ في هذه الدُّروس التي نحن بصددها، طلبتُ المشاركة، فتكرَّرت الاستجابة الكريمة، بعد الدَّرس الأوَّل من سلسلة الدُّروس التي استغرقت أربعةَ أسابيع، وأسهم فيها عددٌ مقدَّر من الشيوخ، والدُّعاة، وطلاب العلم، بعضُهم بما آتاه الله من بسطةٍ في العلم، وبعضُهم بما عنده من رصيدٍ كبير من الخبرة، في ميدان الدَّعوة، زادت على الثلاثين عاماً، بل جاءتني إضافاتٌ رائعة، من بعض الشَّباب، تدلُّ على بعد نظر، وعمق تجربة.

وقد أعانني كلُّ ذلك بفضل الله ﷻ، على الاجتهاد في معالجة المشكلة المنهجيّة الكبيرة، التي كانت سبباً لإثارة هذا التواصل والتواصي والتّناصح، ثم لخَّصَها هذا الكتاب وقد تناولها في المباحث الآتية:

١) مقدّماتٌ مهمَّةٌ في فهم المنهج.

٢) أسباب الاطِّراد والثَّبات في المنهج.

٣) آثار الاطِّراد والثَّبات في المنهج.

٤) أسباب الاضطراب في المنهج.

٥) آثار الاضطراب في المنهج.

٦) تنبيهات وضوابط مهمَّة.

٧) كيف نتعامل مع من اضطرب منهجه؟

وقدّمتُ بين يديها مدخلاً تمهيديّاً، أُبيِّنُ فيه بشيء من البسط الأسبابَ التي دفعت إلى طرح هذا الموضوع، وذلك حتى يتسنّى للقارئ إدراكُ المعاني والدلالات والأهداف المقصودة من وراء إثارة مباحثه، وتقرير أصوله وضوابطه، كما وقفتُ فيه عند تفسير الآية العظيمة من سورة الأحزاب، وهي قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب] فاجعل هذه الآيةَ نُصبَ عينيك، وصوِّبْ نظرك خاصّةً إلى مسك ختامها: ﴿وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾، ذلك هو حال صَحابة النَّبيِّ ﷺ! فنسألُ الله ﷻ أن يوفّقنا للسّير في طريقهم، وأن يُجنّبنا الوقوعَ في الفِتن والأهواء والمحن.

وختاماً أقول: رغم أنّي قد تلقّيتُ في هذا الموضوع قدْراً وافياً من المساهمات، إلا أنّ القضية التي نطرحها، والمعضلة التي نواجهها، من خلال صفحات هذا الكتاب، ذاتُ آثارٍ متجدّدة، تستلزم متابعتها بالحوار، والتَّواصي حولها، ولذا فالمجال لا يزال متاحاً، لكلِّ من يرغب في المساهمة، فيما يتعلّق بأيّ جانبٍ من جوانبه المتعدّدة، فليبعثوا بإسهاماتهم عبر بريد المشرف العام بموقع المسلم، أو عبر الفاكس

رقم: [٢٥٤٩٩٩٦]، مع الإشارة إلى أنها تتعلّق بموضوع: ﴿وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾.

ثمَّ لا يسعُني إلا أن أشكر كلّ من ساهم في هذا الكتاب، سواءٌ أثناء طرح موضوعه في قضية للحوار بموقع المسلم، أو أثناء إلقاء دروسه، والشّكر مُزجىً إلى المكتب العلميّ في مؤسّسة ديوان المسلم، ومَن راجع متن الكتاب، وحقّقَ نصوصه، وأشرف على إخراجه، في إدارة النّشر والإنتاج بالمؤسّسة، وأشكر سلفاً كلَّ من أمدَّني بمعلومة، أو إضافةٍ لاعتبار ذلك في الطبعات القادمة إن شاء الله.

والحمد لله على توفيقه وإعانته، وأسأله العفوَ عن الخطأ والزّلل، كما أسأله أن يكتب له القبول والتّوفيق.

وصلّى الله على محمّدٍ وعلى آله وصحبه وسلّم.

وكتبه: ناصر بن سليمان العمر

ليلة الاثنين ٧/ ١٠/ ١٤٣٢هـ

بين يدي الكتاب

أتناول بين يدَي مباحث هذا الكتاب، وتمهيداً لها أمرين:

أولاً: أسباب طرح الموضوع.

ثانياً: معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾.

أولا: أسباب طرح الموضوع

على الرغم من أنّ مقدّمة هذا الكتاب، قد اشتملت على ذكر شيءٍ من دواعي طرح هذا الموضوع، وسبب إيلائه هذا القدر الكبير من الاهتمام، إلا أني رأيتُ أن أقف هذه الوقفة، لإلقاء مزيدٍ من الضّوء على خلفيّاته، والتأكيد على أنّه ثمرةٌ لعوامل موضوعيّة، وممّا يؤسفني ويُثير في نفسي الحزن استعجالُ بعض الشّباب، وركوبهم مراكب الظّنّ، فتوهّموا أنّني عنيتُ بهذا الموضوع أشخاصاً بأعيانهم، وأن الكلمات إنما هي متوجهة إليهم، وهذا غير صحيح، فظاهرة التحول والتبديل أكبر وأخطر من أن تختزل في أشخاص معيّنين، والواقع أنّ هذا الموضوع كان شُغلي الشّاغل من سنين عديدةٍ، ولم يكن وليدَ اليوم أو الأمس القريب، وهو موضوعٌ يهمّ الجميع، وكلّنا مخاطبون به مباشرةً، كباراً وصغاراً، علماء ومتعلّمين، حتّى لا نقعَ في البلاء والفتنة التي توشك أن تُحيط بنا.

وفيما يلي أذكر بعض هذه الأسباب الموضوعيّة، فمنها:

١- إننا نعيش في فتنٍ هوجاء، ولزوم المنهاج الصحيح هو العاصم منها:

نحن نعيش في فتنٍ، تدعُ الحليم حيرانَ، ونُعاني من ضغوط متنوِّعة، وما كلُّ النَّاس يتحملون الضُّغوط، خاصّةً لـمّا يضعف عندهم الوعي بالمنهاج الصحيح، ذلك أنّ الإنسان إذا كان عارفاً بالمنهاج، وكان على بيِّنة وبصيرة من أوّل أمره، فإنّ هذا يُعينه على الثَّبات، أمّا إذا جهل المنهاج، وافتقد الطمأنينة إلى الصِّراط المستقيم، فعندئذٍ سيكون حالُه كحالِ من قال الله تعالى فيه:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَ ﴾ [الحج: ١١]، وقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ [العنكبوت: ١٠].

٢- معرفة المنهاج تهيِّئ الإنسانَ للصبر على مشاقِّ الطريق والتحسُّبِ لما فيه من أخطار:

فاستعدادُ الإنسان وتهيُّؤه نفسيّاً، وعمليّاً، ودعويّاً، وعلميّاً، وواقعيّاً، كل ذلك يُسهِّل عليه مواجهة الأهواء، إذا استعان بالله.

لو أنّني أردتُ مرافقةَ أحد الإخوان في رحلةٍ إلى البرِّ، وقال لي: إنّ الطريق المعبّد طوله ثلاثمئة كيلومتر، ثمَّ بعدها سيكون المتبقِّي قليلاً، ولكن لم يُحدِّدْه، فاجتزنا الثلاثمئة كيلومتر، وبعدها تتابعت الكيلومترات واحداً، واثنين، وعشرة، ولم نصل، فعندئذٍ قد يُصيبني

الملل، والنَّصَب، والقلق، لأنّني أسير بلا معرفةٍ بالطريق من قبل، فلم أستعدَّ له!

ولو أنّه قال لي: بعد أن نجتاز الطريق المعبَّد، سنأخذ طريقاً طوله خمسون كيلومترا مثلاً، وفيه كثبان رمليّة ومنعرجات، عندئذٍ سأكون أكثر صبراً واحتمالاً لمشقّة الطريق، رغم أنّ الطريق هُوَ هو، ولكن الفارق يكمن في أنّني هذه المرة أمتلكُ رؤيةً واضحةً عن الطريق، وأعرفُ نوع العقبات فيه، وقد هيّأت نفسي لمواجهتها واحتمالها.

وذلك ما نجده في القرآن الكريم، عندما يصف لنا الطريق إلى الجنّة، بقوله تعالى:

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤]. ونلحظ أنّ مثلَ هذه الآية التي بدأت بقوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ ﴾ قد تكرّرت في عدة مواضع من القرآن: في البقرة، وآل عمران، وبراءة وغيرها؛ تهيئةً للنفوس، قال الله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤]، وقوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، وقوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ

وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ [التوبة: ١٦]، وقوله تعالى: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٣ ﴾ [العنكبوت].

وعندما ألقيتُ هذا الموضوع للمرّة الأولى، كنتُ أستبق الأحداث، وذلك على سبيل التَّربية، والحثِّ على الاستعداد والتَّهيئة النَّفسية، وهكذا كان الحالُ عندما أَثَرْتُ موضوع الفتور، فلمَّا برز ليُصبح ظاهرة، كان لذلك الطرح المبكر دورٌ إيجابيٌّ في مواجهته، والاستعداد له من قِبل المربّين، فهذا هو السّبب الأساسُ الدافع لطرح هذا الموضوع الحيويِّ أوّل مرّةٍ، ألا وهو التّهيئة النَّفسية، والتّحسُّب، والاستعداد لمواجهة خطرٍ قادمٍ، قد بدت بعض بوادره.

وذلك إنّما تيسّر بفضل الله ﷻ وتوفيقه، ثم بمساهمة الذين ساهموا في إثراء هذا الموضوع، وكما قلت مراراً: فلستُ في هذا الأمر إلا وسيطاً بينكم وبين المشايخ، وطلاب العلم، والدُّعاة، ليس عندي شيءٌ أتفرَّد به في هذا الأمر، فالمادة منكم وإليكم، آخذُ من رحيق تجربة ذلك الدَّاعية، ومن مَعين فوائد ذلك الشَّيخ العالم، أو طالب العلم، ثمّ أُعيدُها إليكم مرةً أخرى، استعداداً لمرحلة قادمةٍ صعبةٍ شاقَّة عسيرة، نسأل الله أن يُسهِّل علينا.

٣- السَّعيُ لمعالجة بعض الأخطاء الواقعة، معالجةً تقوم على مبدأ التوازن:

فمن أسباب طرحِ هذا الموضوع: وقوعُ بعض الأخطاء فعلاً، بل

حدوثُ بعض التَّغيُّر، ومن تلك الأخطاء ما يبدو واقعاً نعيشه، من تعجّلِ بعض الشّباب في الحكم على بعض الأشخاص، فيقولون مثلاً: فلان قد تغيَّر، في حين أنّه لم يتغيَّر، وكلُّ ما هنالك أنّه اجتهد في أمرٍ يسوغ فيه الاجتهاد، أو وقع في خطأٍ ورجع عنه، وقد تكون الحقيقةُ لا هذا ولا ذاك، وإنما هي محضُ عجلةٍ من بعض الإخوة، وعدمُ انتباهٍ للضَّوابط المرعيَّة، التي نسعى لتقريرها في سياق هذا الكتاب، والتي سيُخصّص لها بإذن الله فصلٌ في خواتمه، تحت عنوان «تنبيهاتٌ وضوابط»، ولطالما حاورتُ جموعاً من هؤلاء المتعجّلين، ودافعتُ عن بعض العلماء من باب العدل، فنحن لا نتعصَّب للأشخاص، ولا نجامل في الحقِّ أحداً، ولسنا بمنجاةٍ من الوقوع في الخطأ، حتى ننكر على غيرنا بغير برهانٍ واضح، بل نسألُ الله أن يعفو عنَّا، وعن تقصيرنا، وأخطائنا، لكن يبقى اتّباعُ العدل ومراعاةُ التّوازن واجباً، كما أنّ أصحاب السَّابقة في ميدان الدَّعوة والعلم الشّرعيِّ، يجب أن نلتمس لهم الأعذارَ ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً.

٤- الحاجةُ إلى بيان حقيقة الانتصار:

فهذا الموضوع له علاقة وثيقةٌ بموضوع كنتُ طرحتُه قبل عشرين سنةً، عن «حقيقة الانتصار»؛ لأنّني قد لحظتُ، أنّ من أسباب هذا التَّغيُّر والاضطراب، الذي أصاب حياتنا الدعويَّة: الحرصُ على هداية النَّاس، بغضّ النظر عن حقيقة هذه الهداية الظّاهريّة، التي يجدُّون في سبيل تحقيقها، ومن أجلها لا يُبالون بتقديم بعض التَّنازلات، في

سبيل ما يُمكن أن يسمّوه «مصلحة الدَّعوة»، فكان من الضَّروري: بيانُ «حقيقة الانتصار» وأنها إنّما تتمثل في التزامك بمنهاج الله الذي جاء عن رسول الله ﷺ. أما أن تهتدي قلوب الناس أو لا تهتدي، فهذا ليس إلينا: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ [القصص: ٥٦].

ومن تدبّر كتاب الله؛ وجده قد بين هذه الحقيقة بياناً جلياً، وهو يخاطب شخص الرسول الدَّاعية الرؤوف الرحيم، قائلاً له:

﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾ [فاطر: ٨].

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [القصص: ٥٦].

﴿ وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الرعد].

﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [الشعراء].

﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾ [الكهف].

﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [ق].

﴿ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الغاشية].

فهذا الحرصُ الزَّائد على هداية الناس قد يوقع في البلاء، بل أوقع في التغير والاضطراب.

فانتبه أخي الكريم! انتصارُك الحقيقيُّ، هو بمقدار التزامك بأمر

الله ونهيه، سواءٌ آمنَ الناس أو لم يؤمنوا:

﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ ﴾ [البقرة: ٢٧٢]. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ﴾ [المائدة: ١٠٥]، فلا تذهب نفسك في سبيل هداية الناس حسرات، ولا تقدم لهم التنازلات ليستقيموا على ما تدعوهم إليه، فوظيفتك الدعوة إلى دين الله لا إلى ما يلائم الأهواء، ولا تدفعهم قسراً وتجبرهم إجباراً على الاستقامة، لا تفعل ذلك كله: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ ﴾ [النحل]، ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [يونس].

ثانيا: معنى قوله تعالى: ﴿ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴾

يقول الله تعالى: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأحزاب].

هذه الآية أصلٌ في هذا الموضوع، وتدبُّرها يُعطينا دلالةً على معانيها وأبعادها، فكان من المناسب أن نقف هذه الوقفة بين يدي موضوعات الكتاب، فنقول:

ذكر العلماءُ في أسباب نزول هذه الآية أربعة أقوال:

الأول: أنهم قومٌ عاهَدوا ليلةَ العَقبة على الإسلام والنُّصرة.

الثاني: أنهم قومٌ لم يشهدوا بدراً، فعاهدوا الله أن لا يتأخَّروا بعدَها، قال ابن جرير: «نزلت في قومٍ لم يشهدوا بدراً؛ فعاهدوا الله أن يفُوا قتالاً

للمشركين مع رسول الله ﷺ، فمنهم من أوفى فقضى نحبه، ومنهم من بدَّل، ومنهم من أوفى ولم يقضِ نحبه، وكان منتظِراً على ما وصفَهم الله به من صفاتهم في هذه الآية»[1].

الثالث: أنهم قومٌ عاهدوا أن لا يفرُّوا إذا لاقَوا، فصدَقوا.

الرابع: أنَّهم قوم عاهدوا على البأساء والضراء وحين البأس، كما ذكر ابن الجوزيِّ في التفسير[2].

وذكر العلماء في معنى قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ ثلاثة معانٍ، وثلاثة أقوال:

أحدها: فمنهم من مات، ومنهم من ينتظر الموت، قاله ابن عباس رضي الله عنهما.

الثاني: فمنهم من قضى عهده، قُتل أو عاش، ومنهم من ينتظر أن يقضيَه: بقتالٍ أو صدق لقاء، قاله مجاهد.

الثالث: فمنهم من قضى نذره الذي نذره، قاله أبو عبيدة[3].

والمعنيان الأخيران متقاربان، والثلاثة كلها حق، فالذين أثنى الله عليهم: منهم مَن مات وقد أدرك عهده، ومنهم من مات وكان عاقداً العزم على الوفاء، ومنهم من عاش وقضى عهده، ومنهم من عاش

---

(١) تفسير الطبري، لابن جرير: [١٩/ ٦٤].

(٢) زاد المسير: [٥/ ١٢٩].

(٣) انظر كلام ابن الجوزي في زاد المسير: [٦/ ٣٧١].

ينتظر القضـاء، ومنهم من قضى نذره، ومنهم من لم يقضه لا نكـولاً لكنه متربص.

وفي معنى قوله تعالى: ﴿ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ قال الإمام الطبري: أي: وما غيَّروا العهد الذي عاقدوا ربهم عليه تغييراً، كما غيَّره المعوِّقون القائلون لإخوانهم: هلمَّ إلينا، والقائلون: إنَّ بيوتنا عورة،... وروى فيه عن ابن زيدٍ قوله: أي: لم يُغيِّروا دينهم كما غيَّر المنافقون[1].

وذكر المفسرون اندراج معانٍ أخرى، منها قول الآلوسيِّ: ﴿ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ عُطِف على ﴿ صَدَقُوا ﴾، وفاعلُه فاعلُه، أي: وما بدَّلوا عهدهم، وما غيَّروا تبديلاً، لا أصلاً ولا وصفاً، بل ثبتوا عليه، راغبين فيه، مُراعين لحقوقه على أحسن ما يكون[2].

قال ابن عاشور: وفيها تعريضٌ بالمنافقين الذين عاهدوا الله لا يُوَلُّنَّ الأدبار[3]، ثم ولَّوا يوم الخندق، فرجعوا إلى بيوتهم، وقالوا: ﴿ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ ﴾ [الأحزاب].

(١) تفسير الطبري: [٢١/ ١٤٨].

(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم، والسبع المثاني، للآلوسي البغدادي: [٢١/ ١٧٢].

(٣) تفسير التحرير والتنوير، لمحمد الطاهر بن عاشور: [١٠/ ٣٠٨].

مقدّماتٌ مهمّة في فهم المنهاج

هذه مقدّمات مهمّةٌ، تدور في فضاء المنهج، قصدتُ منها التعريف بمعنى المنهج الذي ندعو إليه ودلالاته الأساسيّة، وتمييزه عن المعاني والدلالات التي قد تلتبس به وتتقاطع معه، ولكنها ليست هي هو، وأسوق ذلك من خلال العناوين الآتية:

١. ما هو المنهاجُ الذي ندعو إليه؟

المنهج هو المنهاج والتعبير بالمنهاج هو الفصيح، لكن الأول هو الدارج، ويكثر ذِكرُ كلمة المنهاج على ألسنة أهل العلم، بل هو مذكور في النصوص الشرعية كنحو قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، ويكونُ المنهاج في الخير كما يكون في الشَّر، أمّا عندما نصفُهُ بأن من حقه الاطِّراد فيه؛ فإنّنا نقصد به منهاج أهل السُّنَّة والجماعة خاصّةً.

قال ابن كثير: المنهاج هو الطريق الواضح السَّهل[١]، وأيضاً قال ابن جرير: هو الطريق البيِّن الواضح[٢]، وقال الشوكانيُّ: هو الطريقةُ الواضحةُ البيِّنة[٣].

فالمنهاج الذي نعنيهِ هو منهاجُ أهل السُّنَّة والجماعة، منهاج النَّبيِّ

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير:[٢/ ٦٧].

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لابن جرير:[٦/ ٢٦٩].

(٣) فتح القدير، للشوكاني:[٢/ ٥٦].

ﷺ وما سار عليه سلف هذه الأُمَّة، هو المنهاجُ المحكومُ له بالصواب، ومن سلكه سلم من الغضب والضلال، وتلك بغية كل مسلم يقرأ: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝٧ ﴾ [الفاتحة].

والمنهاج الذي نتحدَّث عنه، هو ما تركَنَا عليه رسولُ الله ﷺ، وما التزمت به خيرُ القرون المفضلة: «**تركتُ فيكم ما إن تمسَّكتم به لن تضلُّوا بعدي أبداً: كتابَ الله وسنتي**»[1]، هذا هو المنهاج الذي ندعو إليه، منهاج محمد ﷺ: أُتْلُ القرآن، وخذ بالسُّنة، واتَّبع ما عليه السَّلفُ من الصحابة، ومَن جاء بعدهم من القرون المفضلة، فذاك هو المنهاج المرضيُّ، والصراط المستقيم.

٢. المنهاج يعني القضايا الكليَّة واضحة الدِّلالة، ويشمل الأمور العلميّة والعمليّة:

المنهاج يعني القضايا الكلية واضحة الدِّلالة، أما القضايا الجزئية فليست من أصول المنهاج، بل من مسائله ومكملاته، فعندما نقول: المنهاج، نعني: القضايا الكلية الواضحة والأصول الجامعة، ذات المنطلقات البينة لا المحتملة، ومن أمثلته أن يقال: من منهاج أهل السنة: تعظيم الكتاب والسنة، وعدم تجاوز نصوصهما بالتأويلات، ودعوى تقديم العقل، أو فقه المقاصد على دلالاتهما.

---

(١) المستدرك على الصحيحين، للحاكم: (٣١٩)، سنن البيهقي الكبرى: (٢٠٣٣٧). وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزياداته: (٢٩٣٦).

والمنهاج بهذا المعنى الكلّيّ يشمل أموراً عِلميّة وعَمليَّة، ويندرج فيه كل ما جاء في القرآن أو السنَّة، فكلُّ هذا يُعدُّ من المنهج، لكنْ فرق بين الخطأ في جزئية لعارض، وبين ترك التزام الأصل والقاعدة الكلية.

بناءً على ما سبق، فإنَّ قَصْرَ منهاج أهل السُّنة على بعض تلك الأمور العلميّة أو العملية خطأٌ، على سبيل المثال: بعضُ الناس عندما يقول: منهاج السَّلف، تجده يراعي فيه جانب العقيدة، ولا شك أن شأن العقيدة عظيم، فالاستقامة في مسائل الاعتقاد أصلٌ أصيلٌ من أصول منهاج أهل السنة، لا يُقلِّلُ من شأنه، لكن تجد بعض هؤلاء المعظِّمين لهذا الجانب يُخالف منهاج السَّلف في أمور أخرى تتعلق بالتعامل مع المخالف مثلاً، فيستطيل بالسَّبِّ والشَّتم، ويعتسف الحكم على المخالف، ولا يكاد ينصفه، مع سوء في الأخلاق، وهذا خروجٌ عن منهاج السلف، لأنّ المنهاج لا يقتصر على قضايا العقيدة فقط، ألم يقل الله ﷻ للنبي ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾؟ [القلم]. فهذا أيضاً من المنهاج، وفي الحديث: (**لَمْ يَكُنْ رَسُولُ الله ﷺ فَاحِشًا ولا مُتَفَحِّشًا**)![1] وقال ﷺ: (**إِنَّ شَرَّ النَّاس عِنْدَ الله مَنْزِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ: مَنْ تَرَكَهُ النَّاس اتِّقَاءَ شَرِّهِ**)[2].

وأذكر أشخاصاً اختلف معهم أحدُ أهل العلم، فوقعوا فيه طعناً وسبّاً وشتماً، ومن قبلُ كانوا يُلقِّبونه بالعلامة، وذلك بدعوى مخالفته

(١) رواه البخاري: (٣٥٥٩)، ومسلم: (٢٣٢١).

(٢) رواه البخاري: (٦٠٣٢)، ومسلم: (٢٥٩١).

منهاج السلف! وفعلهم هذا مخالفةٌ صريحة لمنهاج السَّلف، الذي لا يتجزأ بهذه الطريقة، وفقاً للأهواء، فلا بدَّ من مراعاة الجوانب الكليَّة العمليَّة، والقوليَّة، والخبريَّة، إذ كلّها تعد جزءاً من منهج السَّلف.

وأما قصر المنهج على بعض أجزائه، فإنه يدل على وجود الخلل في فهم أو تطبيق منهاج السَّلف، وعندئذٍ تجد الظُّلمَ، وعدمَ الإنصاف، ومن سمات منهاج السلف في الأخلاق الأخذُ بأحاسنها، ومن أصولهم في التعامل الإنصافُ.

٣. التمييز بين تقرير المنهاج، والحكم على الآخرين:

عندما يدور الحديثُ عن المنهاج فلا بدَّ من الوضوح، والشفافية، والصَّدع بالحق، أمّا عند الحكم على الآخرين، وبخاصَّةٍ العلماء والدُّعاة المشهود لهم بحسن السِّيرة، وسلامة المعتقد، فيجبُ أن نُغلِّب حسنَ الظنِّ، ونلتمسَ لهم الأعذار، كما تحدَّث بذلك العلماء قديماً وحديثاً، وكما صنع شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه: «رفع الملام عن الأئمَّة الأعلام»، فينبغي التفريقُ بين هذا وذاك، فعندما نتكلّم عن المنهاج الحق كلياتٍ، وقواعدَ، وأصولاً تتعلّق بالولاء والبراء والجهاد، والمناهج المخالفة، عندئذٍ نتكلم بوضوح، ونصدع بأحكام شرعية لابد من بيانها.

أمّا إذا تعلَّق الأمر بالأشخاص، فعلينا أن نلتزم بمنهاج السلف أيضاً؛ فنتحلى بالعدل والإنصاف، والتماس الأعذار لمن لم يعرف بسوء، ولمن عرف بحسن السيرة وسلامة المعتقد من باب أولى.

٤. المنهاج يتعلق بمجموع أقوال السَلف في المسألة المعيَنة:

وههنا مسألة دقيقة جداً، ألا وهي: أنّ بعضَ الناس يُريدُ أن يبيِّن لنا منهاج السَّلف في مسألةٍ معيّنة، فيأتي ببعض أقوال السَّلف في المسألة، ثم يدعي أن هذا هو منهاج السلف، وهو في الحقيقة بعض منهاجهم، والأخذ به كالأخذ ببعض النصوص وترك بعضها، وقد كان هذا من أسباب ضلال المبتدعة الأُوَل، كالذين غلبوا نصوص الوعيد ولم يضموا إليها نصوص الوعد، وكذلك الشأن في التعامل مع نصوص السلف. وقريب من هذا الانحراف انحراف آخر، وهو أخذ أقوال بعض السلف دون بعضهم، مع وجود من يُخالفهم في المسألة، وهذا عادة ما يكون في الجزئيات التي يدخلها الاجتهاد، لكن بعضهم يجعل قول بعض السلف حجة، ثم يدعي أن ذلك منهاجهم، ثم يوالي ويعادي جراء ذلك، وهذا انحراف عن مسلك القوم، فالصُّدورُ في تصوُّر المنهاج عن آراءِ أشخاصٍ بأعيُنهم دون غيرهم لا يحمد على كل حال، صحيح أنَّنا لا نستطيع أن نفهم المنهاج إلا من خلال فهم السَّلف، ولكن استقراء طريقتهم شيء، وانتقاء أقوال بعض السَّلف شيء آخر، فهذا الانتقاء قد يكون سبب غلط وتلبيس على أناس قد لا يكونُ لديهم اطِّلاعٌ شامل، فيصور لهم أنَّ هذا هو منهاج السَّلف، بينما لو تأمَّلنا وبحثنا، أو رجعنا إلى أهل العلم؛ لتبين أنَّ هناك من السَّلف من خالف هذه المسألة، فمن الخلل تخير أقوال بعض السلف التي خولفوا فيها، وعقد الولاء والبراء عليها.

وكثيراً ما يطَّلِع أحدنا على مقالٍ، أو كتابٍ فيتصوّر أنّه يتضمّن الحقَّ كلّه، فإذا أُتيح له أن يطّلع على أدلّة الطَّرف الآخر، يتبيّنُ له خلافُ ما اعتقد أولاً، فمن الخطأ حينئذ تعميم اجتهادات بعض السَّلف على أنها هي المنهاج الحق، بل هي اجتهادات قد يكون الصوابُ في غيرها، لكن إذا تبين أن القول قول بعضهم، وأنه لا مخالف له منهم، فذلك منهاجهم، وتلك سبيلهم التي لا ينبغي المحيد عنها، إذ ما كان الله ليقر الصدر الفاضل على باطل لا يقوم بإنكاره بعضهم، فتعين المصير إلى ما شاع عن بعضهم ولم يعلم له مخالف، لذلك وجب الانتباه لمثل هذه المسائل.

والتفطن إلى الفرق بين أن القول المعين قول بعضهم مع مخالفة آخرين لهم، يجعل المسألة عادة من مسائل الاجتهاد السائغة، وإن كان لها تعلق بالعقائد، وإن كان الاختلاف في هذا قليلاً بينهم، فالعلماء -على سبيل المثال- قد بحثوا في أبواب التوحيد مسألةَ: هل يسمعُ الميِّتُ كلام الحيِّ إذا زاره أو لا؟[1] على قولين، وذكر العلماء هذين القولين، وأخذ بكلِّ واحدٍ منهما طائفةٌ من السَّلف، فاختيارُ أحد القولين، واعتباره منهاج السَّلف، وتبديعُ المخالف، تعدٍّ وتحكُّمٌ لا يسوغه أن فلاناً من السلف قال بأحد القولين، وقد ترجَّح لي في درس «منار السبيل» في «كتاب الجنائز» أنَّ الميت يسمع من زاره، ولكن من الخطأ أن آتيَ وأقول: إنّ من نفى ذلك مخالفٌ لمنهاج السَّلف. وكذلك

(١) انظر على سبيل المثال مجموع فتاوى شيخ الإسلام: [٣/ ٢٣٠] و[١٩/ ١٢٣].

في مسألة إهداء الثواب للميت، اختلف العلماء: بعضُهم توسَّع في ذلك، وبعضهم ضيَّق الباب، وبعضهم توسَّط[1]، فانتقاء أحد هذه الأقوال، واعتبار من خالفه مبتدعاً، تحكُّمٌ في المنهاج.

٥. المنهاج يقتضي النظر إلى جملة النصوص الواردة في المسألة:

يُعد من الخطأ المنهجيِّ: الاستدلالُ على أمرٍ من الأمور، بالنَّظر إلى بعض النُّصوص، والغفلة عن النُّصوص الأخرى، فمثلاً: في مسألة العلاقة مع الكفار، هناك من يُبرز آيات الجهاد، والولاء والبراء، ويترك ما عداها، ثمَّ في الجهة الأخرى، هناك من يُبرز قوله تعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [الممتحنة]. وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ ﴾ [الإسراء: ٧٠]. معرضاً عن آيات الولاء والبراء، وآيات الجهاد، معتقداً كلٌّ منهما، أنَّ ما معه هو الحقُّ الذي لا حق سواه.

والمنهج يقتضي أن ننظر إلى جملة النُّصوص الشرعية الواردة في المسألة، واعتبار دلالاتها ومعانيها وأحوالها جميعاً، ثمّ قد يكون هذا النّصُّ له وقت وظرفٌ معيَّن يكون واجبَ الإعمال فيه، وذاك له شروط إعمالٍ أخرى، وقد يكون الحقُّ هنا، وقد يكون الحقُّ هناك، وأردت بهذا المثال التّنبيهَ إلى ذلك الخلل المنهجيّ الذي يقع فيه كثيرون، وأخُصُّ بعض المؤلِّفين والمحاضرين، تُطرح عليه مسألةٌ، أو قضية لـمّا

(١) نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار شرح منتقى الأخبار، للشوكاني: [٤/ ١٤٢].

يستكمل بحثها بعدُ، لكن تترجَّح في نفسه قضية، أو مسألة فيذهب إلى النُّصوص التي تؤيِّد ما اختاره أولاً، ويستمر في الاستدلال لها، وإذا وُجد دليلٌ يخالف ما عنده تحاشاه، ولم يأخذ به، واجتهد في تأويله ودفعه، والواجبُ يقتضي من الباحث، وطالب العلم عند نظره في مسألةٍ من المسائل، أن يكون متجرِّداً للحقّ، فيقوم بجمع النُّصوص الشرعيّة الواردة فيها، ومقارنة بعضها ببعض، والنظر في الراجح والمرجوح، والناسخ والمنسوخ، بعد ذلك سيجد في نفسه ميلاً إلى جهةِ ما يرى أنّه الحقُّ، فليتّقِ الله، ويتثبّت ممَّا دلَّت النُّصوص الشرعية عليه، ولا يزيغ عنها متّبعاً لهواه.

أما الاستدلال لما تهواه النفس أو يستحسنه العقل فخطأٌ منهجيٌّ، كثيراً ما نقع فيه، فنحكم على الأمر بما يبدو لنا للوهلة الأولى، دون تحرٍّ ونظر واستقصاء، وقد اتَّصل بي أحد الإخوة يكلّمني في قضيّة من القضايا المرجوحة، فقال لي: إنّه قرأ لأحد الكتّاب كلاماً مُقنعاً فيها، مستمَدّاً كلُّه ممّا قال الله ورسوله، وأنَّه وجد في نفسه ميلاً إليه، مع علمي يقيناً بأنّ هذه القضيةَ مرجوحةٌ، وقد نبّهتُه إلى الجانب الآخر الذي غاب عنه، وأنّ صاحبَ الكتاب لم يُبرز الأدلّة المخالفة، كما أبرز الأدلّة التي تؤيّدُ ما ذهب إليه، وحريٌّ بنا الانتباه لهذه المسألة، وأن ننظرَ إلى الأمور نظرةً شاملة، وألا نستعجلَ في الحكم، خاصّةً إذا تعلّق الأمرُ بالقضايا ذاتِ الأهمية الكبرى، أو أمر لنا فيه سعة! فالواجب أن نطّلِع، ونقرأ، وإذا أشكل علينا أمرٌ نعود إلى العلماء فنعرض عليهم ما قرأنا في المسألة، ونطلب القول الفصل في صحة ما قرأنا، وقد يكون

جوابُ الشيخ: أنَّك قد علمتَ شيئاً، وغابت عنك أشياء، فعلينا أن نحذر من الانتقائيَّة، فهناك من يأخذ بآيات التَّرغيب دون آيات التَّرهيب، وهناك من يأخذ بآيات التَّرهيب دون آيات التَّرغيب، وقد وقع في هذا الخطأ، وخالف المنهاجَ من كان قصدُه أن يُبيِّن المنهاج.

٦. التحذير من مدرسةٍ جديدةٍ في المنهاج:

ظهرت الآنَ مدرسة جديدة في المنهج، تدعي أنها تلتزم بروح منهج السَّلف ومقاصدهم، دون أن تلتزم بحرفية النصوص، وهو منهج تسلكه ثُلة من الذين ثقلت عليهم النصوص الشرعية، فاحتالوا للانفلات من منها بدعوى التَّيسير مرة، ومراعاة العصر تارة، وبيان سماحة الإسلام أخرى، وما إلى ذلك، فيضعف تمسكهم بأصول معتبرة، كالولاء والبراء، والجهاد، وتحكيم شريعة الله، ويُخضعون النصوص الشرعية لأهوائهم وأوهامهم، بدلاً من أن يَخضَعوا هم للنصوص، فضاعت عندهم معالم الولاء والبراء، وبدأنا نسمع منهم كلاماً، ما كنا نظن أن نعيشَ حتى نسمعه من بعض المنتسبين، انبرى أحدهم متكلّماً في قضية الجهاد، ففسّره بمعنىً أبعد ما يكون عن معناه الحقيقي، آخِذاً فيه بجزئية من معاني الجهاد، ألا وهي مجاهدةُ النَّفس، فقال: هذا هو الذي تؤيده النصوص الشرعيّة! فأين ذهبتْ آياتُ الجهاد؟ كقوله تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾[التوبة: ١٢٣]، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ١٦٨ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ

فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [آل عمران]. هل هذا هو جهاد النَّفس؟ وبالجملة فهذه المدرسة التي تتفلت من النصوص بدعوى مراعاة الواقع والمقاصد خطيرة جداً، يلزمها بناء على ادعائها الكاذب أن الله تعالى لا يعلم دلالة ما قاله وما يشمله من التشريع العام، أو أنه إنما أنزل هذا القرآن لعصر دون عصر، وقوم دون قوم، وليس هو للناس كافة، وقد بدأت تبثُّ هذه النابتة سمومها في الأُمَّة، وتموِّه براية يسر الإسلام وسماحة تعاليمه، وهذه حقيقةٌ لا شك فيها، فالإسلام هو اليسر كلُّه، وهو السَّماحة كلُّها، لكن ليس بهذه الصورة التي يدعونها، بل كما أنزله الله في كتابه، وكما بلغه محمد صلى الله عليه وسلم، الذي هو أعلم بمقاصد التشريع، وقد بُعث ليبين الكتاب، ولم يُبعث إلى طائفة خاصة، بل ليبين للناس كافة إلى يوم الدين.

ومن المهمّ في هذا الصدد الإشارة إلى معرفة الثوابت والمتغيرات، ومعرفة الأصول والوسائل، والقطعيَّات والظنيَّات، والكلِّيات والجزئيَّات، وكل ذلك حق يعرف من خلال النصوص، ولا تخضع النصوص لمقررات مسبقة فيه، والله المستعان.

٧. قاعدة مهمّة في الحكم على الأشخاص:

لا يُمكن أن يُعرفَ منهجُ فردٍ من الناس، إلا بعدَ مسيرةٍ معتبرةٍ في الأمر الَّذي يدعو إليه:

والالتزام بهذه القاعدة، مهمٌّ جداً، على أن يكون تتبُّعُ هذه المسيرة كافياً للحكم على منهجه، ومسيرته، وطريقته، ومعرفة أصوله، ومنطلقاته، فيقال بعدها: إنَّ منهجه كذا، أو طريقته كذا، ونحو ذلك، وقد سألني أحدُ الإخوة: كم نحتاج من الزَّمن حتى نعرف منهج أحدهم وطريقته؟ فقلت: ليست العبرةُ بالمدة الزمنية، لاختلاف الناس، والمكان، والحال، إنما العبرة بوضوح منهجه لك، والتّثبُّت من حقيقة دعوته، وكما هو مشاهد؛ فإنَّ عالماً من العلماء، أو داعيةً من الدُّعاة، بعد مدةٍ من الزَّمن طالت أو قصُرت، يصير معروفاً بمنهاجٍ معيّن، فيُقال: منهاجه كذا، وطريقته كذا، والمرجعُ في ذلك هم العلماء، وطلاب العلم، والدُّعاة، وعقلاء النَّاس، لا المتعجِّلون منهم، فلا يمكنُنا من خلال موقف، أو موقفين، وربما سنة، أو سنتين، أن نحكم على فلان بأنّه ينتهج منهاجاً من المناهج المنحرفة، لكن بعد أن يُعرف الرجل، ويشتهر منهاجه وسلوكه، عندئذٍ نستطيع أن نحكمَ عليه، ونستطيعُ أن نحدّدَ ما إذا كان قد تغيّر أو لا! ونستطيع أن نتنبَّأ بسلوكه، بالنّظر إلى القضيَّة المطروحة، فإذا طُرحت قضيةُ الجهاد، يتبيّن لنا أنَّ هذا الرجل غالباً سيكون موقفه كذا، لأنَّ سيرته، وتاريخه، وحياته، تدلُّ على ذلك، ومثلما عُرف حاتم الطّائي بالكرم، حتى صار منهاجاً

له، فكذلك الإنسانُ في العادة، يُعرف بعد مدة مع ملاحظة مواقف معيّنة، ما هو منهاجه.

٨. الأزماتُ تبيّن معادن الرجال، وتكشف حقيقةَ إيمانهم بمواقفهم:

ذكرت أنه ينبغي تتبّعُ تاريخ الشخص جيّداً؛ حتى يتسنّى الحكمُ الصائب على منهاجه، وهذا الأمرُ يوقفُنا عند إحدى الحقائق الكبيرة، ألا وهي: إنّ أبرز ما يُبيّن منهاجَ العالم والدَّاعية هي الأحداثُ والوقائعُ المهمة، لأنّ الناس في حال الرَّخاء لا يتمايزون، سألني أحد الإخوة فقال: إنّه قرأ حواراً لي مع مجلة البيان أقول فيه: إنَّ مناهج الرَّخاء لا تُخرج قادة الأزمات. فقلت له: هذا صحيح، فنحن نرى كثيرين، يمارسون العمل الدعوي في أوقات فراغهم، خارج الدَّوام، وعبر الرّحلات والبرامج العفويّة، ليس هناك جِدٌّ، ولا صبرٌ، ولا تحمُّل، فإذا جاءت الأزمات اختلف الأمر: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ ﴾[الحج: ١١]. وهذا أمرٌ مُشاهدٌ على مدار التَّاريخ، ولذلك مطلوبٌ من العلماء، ومن المشايخ، ومن طلاب العلم، ومن المربين: أن يُربُّوا أبناءَهم على الجدِّيَّة، في حال الرَّخاء والشدَّة.

ولو اطّلعتم على سِير بعض العلماء من الذين ثبَّتهم الله، فمنهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر، لو اطّلعتم على تاريخهم وهم في مرحلة

الشَّباب، لأُصِبتم بالذُّهول، بسبب ما كانوا عليه من الجدِّ والثَّبات والصَّرامة، الأمر الذي أدّى إلى اطِّراد منهاجهم وعدم تذبذبهم.

ومما يحسن التنبيه عليه في هذا المقام، ولفتُ نظر المربِّين إليه، هو: أنَّ الصحابة ﷺ، والنَّبيُّ ﷺ معهم، كانت تُقدّر عليهم الأقدار، ويُبتلَون، فيتنزَّل الوحيُ معقّباً على هذه الأحداث، مُثنياً على المؤمنين، ذامّاً للمنافقين، وذلك على سبيل منهج التَّربية بالمواقف والأحداث.

والخلاصة أن المنهاج الذي أدعو إلى الالتزام به، والاطِّراد عليه، وعدم الحيدة عنه، أو الاضطراب فيه، هو: منهاج أهل السُّنَّة والجماعة، الذي تركَنا عليه رسولُ الله ﷺ، والتزم به الصحابة رضوان الله عليهم، وثبت عليه سلفُ الأُمَّة، من القرون المفضَّلة، ومن سار على نهجهم: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ ﴾ [الأنعام: ٩٠].

٩. هل الأحداثُ هي التي تصنع المنهاج؟ أم المنهاج هو الذي يصنعُ الأحداث؟

مع كل أسف، هناك كثيرون، يريدون للأحداث والوقائع أن تصنع المنهاج، بينما الصحيح أنَّ المنهاج هو الذي ينبغي أن يصنع الأحداث، وهناك كلمة رائعة، حقّ لها أن تُكتبَ بماء من ذهب، لسماحة الشَّيخ محمد ابن صالح العثيمين ﷺ، يقول فيها: «الدين الإسلامي: متضمن لجميع المصالح التي تضمنتها الأديان السابقة، متميز عليها بكونه صالحًا لكل زمان، ومكان، وأمَّة، قال الله تعالى مخاطبًا رسوله ﷺ:

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [سورة المائدة: ٤٨]. ومعنى كونه صالحاً لكل زمان، ومكان، وأمَّة: أنَّ التمسك به لا ينافي مصالح الأمة في أي زمان، أو مكان، بل هو صلاحها، وليس معنى ذلك أنـَّه خاضع لكل زمان، ومكان، وأمَّة كما يريده بعض الناس»[(١)]، فنحن نقول: إنَّ الإسلام مُصلِحٌ لكلِّ زمانٍ ومكان! وينبغي أن يخضع النَّاس له في كلّ زمانٍ ومكان.

وعوداً للمراد؛ فإنّ المنهاج هو الذي يصنع الحياة ويصوغها، وليست الأحداث ووقائع الحياة هي التي تصنع المنهاج، كما يريد المنهزمون.

يشكو لي أحد المشايخ: أنّه قد تعالت أصواتٌ، يدعو أصحابها، إلى مراجعة نصوص القرآن والسُّنَّة، وثوابتِ الدِّين، لتتلاءم مع ما نعيشُه اليوم من مُتغيِّرات، وكأنَّ الواقعَ هو الذي يصنعُ الدِّين، بل إنَّ كثيراً من أصحاب الأصوات هؤلاء، يُقرِّرون في مبدأ حديثِهم، ووسطه، وخاتمته: أنَّ المحكمات لا جدال فيها، ولا خلافَ عليها، لكنَّ واقعَ حياتهم، وسلوكهم المطَّرد، يتجاوز هذا التقرير.

وإخضاع النُّصوص والدِّين للحياة، وتفسيرُه وفقاً لها منهجٌ ظاهر الفساد، وقد أصبح اليوم مدرسة قائمةً، يريد أصحابها منّا أن نُراجع الثوابت والأصول والمنطلقات، لتتكيَّف مع الواقع، وتتلاءمَ مع ما

---

(١) عن موقع الشيخ الرسمي:

http: / /www.ibnothaimeen.com /all /books /article_17975.shtml

يُريده أعداءُ الله، ويزخرفون دعوتهم ببهرج من الكلام، يقولون: دينكم عظيم، دين السماحة، دين الرحمة، لكنَّ مبدأ الجهاد، ومبدأ الولاء والبراء، ممّا يعوِّق علاقاتنا بالمجتمع العالمي، فلنعد فهمه على أنه جهاد النفوس، أو جهاد من اعتدى فقط، فنقول لهم بملء الفم: لا، وإنّ ديننا لدينُ السَّماحة والرَّحمة: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء]، وإنَّ من أعظم الرَّحمة جهادَكم من أجل هدايتكم إلى الحقِّ.

هذه هي الرحمةُ بالمفهوم الشرعيّ المنضبط الذي نعرفه نحن، أمّا الذين يريدون أن يُخضعوا الدِّين، والنُّصوص، والمنهج، لواقع الحياة الرّاهنِ، وللمساومات مع الأعداء، فهؤلاء قد أضاعوا المنهاجَ، وأضاعوا الدِّين، فمرةً باسم التقريب بين المذاهب، وإزالة العقبات في العلاقة مع الرافضة، ومرةً باسم مصانعة الأعـداء؛ أضاعوا الولاء والبراء، وهذا كلُّهُ باسم الدِّين، فهم لا يستدلُّون بالتوراة، ولا بالإنجيل، ولا بالشِّعر، بل يأتونك بنصوصٍ شرعيّة وأقوال وأدلة، يفسِّرونها بحسب أهوائهم الخاضعة في الغالب لضغوط الغرب، وكثير من النفوس الضعيفة تستجيب لذلك الضغط، وهذه مسألةٌ بالغة الأهميّة، آمل أن نتقي خطرها، ليكون اعتزازنا بالإسلام، فهو مصدرُ علوِّنا: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]. نعم، نحن الأعلون، والمؤمنون هم الأقوى:

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون]، ولكن المنافقين لا يعلمون، ولا يفقهون، هذه حقيقتُهم، فحذارِ من الانصياع لهم في إخضاع الدِّين لأهوائهم، ورَغَباتهم، ومصانعاتهم، فحسبُنا الله ونعم الوكيل!

أسبابُ الاطِّراد والثبات على المنهاج

إنّ معرفة الأسباب المعينة على الثَّبات في المنهج، أمرٌ ذو أهميةٍ كبيرة، إذ لا يبقَى بعد معرفتها إلا الاجتهادُ في تحقيقها، من أجل الاستقامة على المنهاج الصَّحيح، ولقد سمعتُ أحدَ الدُّعاة، ممّن قُدّر عليه أن يُقتادَ في بلده إلى غيابة الجبِّ، بسبب قيامه بواجب الدَّعوة والبلاغ، سمعتُه أكثرَ من مرة يقول: والله، لقد ندمتُ على أوقاتٍ كنت أقضيها في التَّفكير في السِّجن، لأنّي لـمَّا قُدِّر عليَّ أن ألجَهُ؛ وجدتُ الأمر ميسّراً، ولم يكن يستحقُّ مني عناء التفكير فيه، وذلك كما قال ابن القيم عن شيخه شيخ الإسلام ﷺ: «قال لي مرة: ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري! إن رحت فهي معي لا تفارقني، إنّ حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة! وكان يقول في محبسه في القلعة: لو بذلت ملء هذه القاعة ذهباً؛ ما عدل عندي شكر هذه النعمة. أو قال: ما جزيتهم على ما تسببوا لي فيه من الخير، ونحو هذا. وكان يقول في سجوده وهو محبوس: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، ما شاء الله. وقال لي مرة: المحبوس من حبس قلبه عن ربه تعالى، والمأسور من أسره هواه! ولما دخل إلى القلعة وصار داخل سورها نظر إليه وقال: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ١٣﴾ [الحديد]. وعلم الله ما رأيت أحداً أطيب عيشاً منه قطُّ، مع ما كان فيه من ضيق العيش، وخلاف الرفاهية والنعيم، بل ضدها! ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق،

وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشاً، وأشرحهم صدراً، وأقواهم قلباً، وأسَرَّهم نفساً، تلوح نضرة النعيم على وجهه، وكنّا إذا اشتَّد بنا الخوف، وساءت منا الظنون، وضاقت بنا الأرض أتيناه، فما هو إلا أن نراه، ونسمع كلامه، فيذهب ذلك كلُّه، وينقلب انشراحاً وقوة ويقيناً وطمأنينة! فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه، وفتح لهم أبوابها في دار العمل، فأتاهم من رَوحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها»![1].

وليس معنى هذا أن نسعى للبلاء، ونطلب السِّجن! لا، بل ننأى بأنفسنا عن مواطن الفتن، من دون تقصير في واجباتنا الشرعية، فالقضية موازنة، من الناس من يترك الواجب أو يقع في المحرم إيثاراً لدنيا، وهؤلاء مفرِّطون، وآخرون ضدّهم فهم متهورون مفرِطون، والواجب العمل للدين مع تحري الحكمة، والأسلوب الأمثل في الدعوة، الذي لا يجعل لمخالفك عليك مدخلاً، فإن ظلمت بعدها فالله ينصرك، ويمدك بروح من عنده. وقد كان أنبياء الله تعالى على هذه الجادة، لا تفريط ولا تهور! فلما قال فرعون لموسى عليه السلام: ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الشعراء]. لم يقل له متحدّياً: إنني لا أُبالي بالسِّجن، بل قال: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾[الشعراء]، ومعلومٌ كيف كانت سيرته في دعوته من قبلُ!

(١) الوابل الصيِّب ص٦٧.

وأما يوسف عليه السلام لما قال: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ [يوسف: ٣٣]، فلم يكن يُعبّر عن رغبةٍ في السِّجن، ولا كان يتمناه، بل أخطأ من قال: إنَّ يوسف قد طلب السِّجن فوُكل إليه، بل هو يقول: السجن مكروه لكنه أحبُّ إليَّ من الفاحشة التي يدعونني إليها، فهذه أشد كرهاً عنده، ودلالة الآية ظاهرة على هذا المعنى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [يوسف].

والقيمة المنهجية الكبيرة التي تحكم هذه القضية، هي قولُه ﷺ: (لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَسَلُوا اللهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا)[1]، ومعرفة هذه القيمة المنهجية يُعين على الثبات واطِّراد المنهج.

وفيما يلي أستعرض أبرز الأسباب التي من شأنها إذا ما تحقّقت، أن يتحقّق تبعاً لها الثَّباتُ والاطِّراد في المنهج، وهي:

١. الإخلاص، وصدق النية، وإرادة وجه الله، ومجاهدة النفس على ذلك:

يقول الله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩].

ويقول عز وجل: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص].

---

(١) متفق عليه: البخاري (٢٩٦٥)، ومسلم (١٧٤٢).

فمن أعظم ما يُساعِد على ثبات الإنسان: الإخلاصُ، وصدق النية، وأن لا يُريد بعمله إلا وجه الله ﷻ، هذا إضافةً إلى أمرٍ آخرَ مهمٍّ، ألا وهو مجاهدة النفس؛ لأنَّ الإنسان قد يبدأ عمله في طلب العلم، أو الدَّعوة، أو غيرها بالإخلاص، ولكن تعرض له أمور تحرفه عن طريقه، فالإنسان -في كلِّ عمل يقوم به، وفي كلِّ يوم يمرُّ به- معرّضٌ إلى الانحراف ذات اليمين وذات اليسار، فالنية الأولى ليست كافيةً، ولا بدَّ من استمرار المجاهدة كلَّ يوم.

يقول أحدُ المشايخ -وأعرفُ أنَّ له دروساً، يُلقيها منذ عشرات السنين، أسأل الله أن يثبتنا وإياه على الحق- يقول: لم أُقدم على درسٍ، في يوم من الأيام، أو محاضرة، إلا وقد توجهت إلى الله، وتضرَّعت إليه بسؤاله الثباتَ، واستعذتُ به: اللَّهمَّ إني أعوذ بك من أن أُشرك بك شيئاً أعلمُه، وأستغفرك لما لا أعلمه.

فالشأن كما قال الشاعر الحكيم:

إذا لم يكن عونٌ من الله للفتى فـأوَّلُ ما يجني عليهِ اجتهـادُه

لا بدَّ من تجديد الإخلاص، وتعاهد النيَّة، ومراجعة النفس، والله ﷻ يقول: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت: ٦٩]. ويقول: ﴿ تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ ﴾ [القصص: ٨٣]، إشارة للبعيد رفعاً من منزلتها، ﴿ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗا ﴾، ثم يقول: ﴿ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ أي: الذين عرفوا، ولَزِموا، واستمرّوا على التَّقوى.

سمعتُ كلاماً عن رجلٍ من طلاب العلم، وقع في بعض الأخطاء الكبيرة، فقال بعضُ خواصِّه: كنتُ أخشى عليه من بعض نيَّاته المدخولة، ممّا يُراد به في العادة غيرُ وجه الله ﷻ، ولا يعرفها عنه إلا الخواصُّ، كان ذلك في شبابه، والمرء قد يُعاقَب على بعض نيّاته المدخولة، إن لم يصحِّحْها، فيُخذل، والعياذ بالله!

ونحن لا نبحثُ عن نوايا الناس، ولا نفتِّش عن قلوبهم، كلا! فقد عاتب الرسول ﷺ أسامة بن زيدٍ، لـمّا قتل الرَّجل بعد أن قال: «لا إله إلا الله» بحجّة أنّه إنما قالها خوفاً من السلاح، فقال له الرسول ﷺ: **(أَفَلا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ؛ حَتَّى تَعْلَمَ أَقَالَهَا أَمْ لا؟)**[1]، ولكن، هذا الشخص الذي أروي عنه، لم يبُح بما قاله إلا على سبيل التَّحذير من ذلك الشخص أولاً، وبناءً على ثقته من اتّصافه بتلك الوصمة ثانياً؛ فقد سمع من لسانه كلماتٍ فيها إعجابٌ بنفسه، وانتقاصٌ للعلماء، كلماتٍ تدلُّ على أنّ في قلبه دَخَناً، فاللسانُ إنّما يَغرفُ من القلب، ثمّ ثالثاً: لم تمضِ سنوات قلائل، حتى وقع هذا الشخصُ في البلاء، بسبب تلك النيَّةِ القديمةِ المدخولة، التي يبدو أنه لم يجتهد في تصحيحها، فصار ما رآه بعضنا ضرباً من الظنّ الآثم حقيقةً مشهودةً؛ فيجب الانتباه لهذا الأمر؛ حيث إنَّ إرادة الإخلاص، وتجديد النية، والصدق، والمجاهدة المستمرّة، عاصمٌ ومانعٌ من الوقوع في البلاء، بتوفيق الله وعونه.

---

(١) رواه مسلم: (٩٦).

٢. القناعة الراسخة بمنهجه الذي يسير عليه:

لا بدَّ أن يكون عند الإنسان قناعة راسخة ورؤية واضحة للمنهج الذي يسير عليه، يقول الله ﷻ: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [يونس]، ويقول الله ﷻ: ﴿ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ﴾ [الأنعام: ٥٧]. وأنت ترى بعض الناس على خير: دروس، ومحاضرات، وعمل صالح، ومشاريع، لكن لو أردتَ أن تحقّق، أو تتحقَّق ممّا إذا كان على بيّنةٍ ويقين من هذا المنهج الذي يسير عليه، لقال لك: وجدتُ الناسَ سائرين في هذا الطريق، فسِرْتُ من ورائهم، ومن أيسر الأمور على الشيطان أن يُضلّ مثل هذا الشخص، ويدفعه إلى أن يتنازل عن المنهاج، عندما تُطلّ الفتن والأزمات برأسها.

٣. سلامة الأصول والمنطلقات التي يُبنى عليها هذا المنهاج:

لا بدَّ من سلامة الأصول والمنطلقات التي يُبنى عليها المنهاج، وهذا لا يكونُ إلا بالعلم الشرعيِّ، وآكَدُ هذه الأصولِ، يتمثّل في العقيدة، وهذا أمرٌ مقرّرٌ، وإنّما يدعونا لإثارته ما نراه من حال علماء برزوا في دعوتهم، وفي علومهم ومؤلّفاتهم، لكنَّ مواقفهم العقديّة من حيث ضعف الولاء والبراء لا تُحمد، فبعضُهم -على سبيل المثال- يقول: لا يلزمُ أن يُقام الحكمُ بما أنزل الله إذا لم يرض الناس.

يقول بعض الإخوان: جلست أتأمَّل في حال من يقول ذلك؛ فوجدتُ أنَّ في أصل بناء شخصيّته الإسلاميّة خللاً، وبخاصة فيما

يتعلق بالجانب العَقديِّ. وبالمقابل يوجد عندنا الآن عوامٌّ، من رجال ونساء كبارٌ في السن، رغم أمّيَّتهم تجدهم على أصول منضبطة، والتزامٍ صحيح بالمنهج والعقيدة؛ وذلك لأنهم تربَّوا على عقيدة صحيحة، فإذا واجهتهم المشكلات في حياتهم، ألفيتهم ثابتين، لم يسقطوا في دوائر الشكّ والزيغ، تجد عندهم إدراكاً وفهماً، حتى في بعض مسائل الفروع؛ لأنَّ تربيتهم صحيحة، وعقيدتهم سليمة.

فسلامة الأصول والقواعد، ومن آكدِها ما يتعلق بالعقيدة، تجعل الإنسان مطَّرد الارتقاء، لذا كان لزاماً علينا أن نتفقد أصولنا ومنطلقاتنا -خاصةً في هذه الأيام- من صحة الأساس العقدي، ومن أننا على منهاج أهل السُّنَّة والجماعة، وما كان عليه النَّبيُّ ﷺ وأصحابه، وما قام به الإمام المجدِّد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله.

إنّ سلامة الأصول والمنطلقات، تتضمّن الالتزام بالمقاصد العامة، والكليات التي جاءت بها الشريعة، والأخذ بالاجتهاد فيما يسوغ فيه الاجتهاد، مع البعد عن الشُّذوذ والغرائب.

وبالإضافة إلى الأصل العقديِّ -وهو الأساس- نذكر من الأصول التي هي مقاصد للشرع ما يلي:

أ. **العدل**، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا﴾ [المائدة: ٢]، ويقول: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

ب. محبّة هداية الخلق، والإحسان إليهم، والحرص على هدايتهم، مصداقاً لقول الله ﷻ : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧ ﴾ [الأنبياء]، وفي هذا السّياق يروي أحد المشايخ قصّةً، يتجسّد فيها هذا المعنى الكبير:

كتب أحد الصّحفيِّين مقالاً، في إحدى الدوريّات، يزعم فيه أنّ الشَّيخ عبد العزيز بن باز ﷺ يؤيِّدُ قيادة المرأة للسَّيارة، يقول هذا الشيخ: فأخذتُ المقالَ إلى الشيخ ابن باز، فقرأته عليه، فغضب وكتب رسالة لرئيس التحرير، يستنكر فيها أن يُنسَب إليه ما لم يَقُله، يقول: فذهبتُ إلى رئيس التحرير الذي انتابه الغضبُ، من هذا الصحفيِّ الذي غلبت عنده الرغبةُ في الإثارة الصحفية الرخيصة، على ضرورة التزام الصدق في القول، فتأسّف رئيس التحرير واعتذر عمّا ورد في الصحيفة منسوباً إلى الشيخ ابن باز، ووعد بنشر ردّ الشيخ ابن باز عليه في العدد القادم، وبشّرني بأنه قد تمّ فصلُ الموظف.

يقول: فذهبت إلى الشيخ، وأنا راضٍ بإنجازي لهذه المهمة، التي كُلّفتُ بها من قبل سماحته، فإذا به يعترض على فصل الصحفيّ من عمله، قائلاً: إنّ الذي يهمُّنا هو: أن يرجعَ عمَّا هو عليه، ويتوبَ إلى ربِّه، لا نُريد أن يَلحقَه بسببنا أذىً، وقد تكون له أسرةٌ وأولاد، لا نريد أن يلحقَهم بسببه أذىً... ألا إنّها أخلاقُ أهل السنة!

وهذا السُّلوك من الشيخ ابن باز، هو منهجه الذي عُرف به، يُنفق منه كيف يشاء، يَمنةً ويَسرةً، وقد رُوي عنه من ذلك، أنه أذِنَ

لأحد الأشخاص، بصرف مبلغٍ من المال على سبيل المساعدة، تقديراً لظروفه المعيشيّة، فقام هذا الشخصُ بزيادة نقطةٍ على يمين الرقم، الذي يدلُّ على المبلغ الذي أُذنَ له به، ليصير المبلغ عشرة أضعاف، ثمّ ذهب بالورقة إلى الموظّف المُكلّف بصرف المبلغ، فانتبه للتزوير، ورفع الأمر للشيخ، وكان يتوقّع أن ينتابه الغضبُ، فيأمر بحرمانه من كلِّ عونٍ، أو أخذه للشرطة بتهمة التزوير، كما يفعل الكثيرون، فقال الشيخ: يبدو أنَّ شدّة الحاجة، هي التي دفعته لذلك؛ فأقِرُّوها له كما كتبَ، لا بدَّ أنه بحاجةٍ ماسَّةٍ لهذا المبلغ!

فهذا أنموذجٌ للبناء المطَّرد، على الثوابت والأصول، والمنطلقات الشرعيّة الأساسيّة، فيما يتعلّق بمحبّة هداية الخلق، والإحسان إليهم، وصلّى الله وسلم على من قال له ربُّه: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الأنبياء].

وهكذا ينبغي أن يكون الدَّاعي متأسّياً بسيّد الدُّعاة ﷺ، لا يُحبُّ الانتقام والأذى، حتى ولو بودر بالسيّئة والإساءة: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾[الشورى]، ﴿ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ﴿٣٤﴾ ﴾ [فصلت].

٤. الحرص على الاجتماع وعدم الفُرقة:

يقول الله تعالى: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، ويقول تعالى: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الأنفال]،

بعضُ الناس وإن كان فيه خير، لكنه بلا قصدٍ منه، يسعى إلى الفُرقة بين الناس، ويحزِّبهم، ويفرِّقُهم، ويلتمسُ معايبهم.. ألا فلينتبه هؤلاء! وليحذروا من الوعيد المضمّن في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

٥. مراعاة الزمان، والمكان، والأحوال، والقدرة على التجدد والتجديد دون ابتداعٍ، أو تحريف:

وهذا الأصل يُعين الإنسان على الاستمرار والارتقاء في طريق الدَّعوة، وذلك بسبب ما يتميّز به من احترامٍ لنواميس الكون وقوانين المجتمع -ما كان منها شاملاً مطلقاً، وما كان منها جزئيّاً محدّداً- فمراعاة الدَّاعيـة للزمان المحدّد والمكان المحدّد والحال المعيّن، يُسهم في تجديد وعيه وتجدُّده، دونما ابتداعٍ أو تحريف. وهذا كله يتصور في نحو ما يكون مناط الحكم الشرعي فيه متعلقاً بأوصاف أو أمور تتغير بتغير الزمان والمكان، كالأمور الراجعة للأعراف، فقد يعد شيئاً مقبولاً في زمان، ولا يعد كذلك في آخر، وقد يُعدُّ مالٌ كافياً في زمان أو مكان، ولا يعد كذلك في آخر.

ويتصور كذلك في الوسائل المباحة في أصلها التي تسلك لتحقيق مقاصد شرعية، فهذه يدخلها من التطور باختلاف الزمان الشيء الكثير، ومراعاة ذلك مطلوبة.

ومما يدلُّ على أن مراعاة الزمان، والمكان، والأحوال المتجدّدة، مطلب شرعي، قولُ النبيِّ ﷺ لعائشة ﵂ في قصة بناء الكعبة: (لَوْلَا

أَنَّ قَوْمَكِ حَدِيثُو عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ، أَوْ قَالَ: بِكُفْرٍ، لَأَنْفَقْتُ كَنْزَ الْكَعْبَةِ فِي سَبِيلِ الله، وَلَجَعَلْتُ بَابَهَا بِالْأَرْضِ، وَلَأَدْخَلْتُ فِيها مِنَ الْحِجْرِ) [١]، وفي روايةٍ: (فأخافُ أن تُنكر قلوبهم) [٢]، كلُّ هذا مراعاةً لواقع الحال والزمان والمكان، وبهذه المناسبة، فإنّي أنصح بالرُّجوع إلى كتاب الإمام ابن القيم «إعلام الموقعين عن رب العالمين»، فقد تحدث عن هذه القضية بما يشفي ويكفي.

وتأمل عنوان كتابه قبل الخوض في هذه المسائل الكبار: إعلام الموقّعين عن رب العالمين، ما أعجب هذا العنوان! سمّاهم موقّعين عن رب العالمين؛ ذلك أنّ من يُكلِّم الناس في أمور الشرع، فإنه إنما ينقُل إليهم حكمَ الله ورسوله، والناس إذا استفتَوك عن أمرٍ من الأمور الشرعيّة، فإنما يُريدون معرفةَ الحكم الشرعي الذي يدينون لله به، لا معرفة رأيك أو موقفك! فأنت في كلّ ذلك مُوَقِّعٌ عن ربّ العالمين.

وقد عقد الإمام ابن القيم في هذا الكتاب فصلاً عظيماً، تحت عنوان: «فَصْلٌ فِي تَغْيِيرِ الفَتْوَى، وَاخْتِلَافِهَا، بِحَسَبِ تَغَيُّرِ الأَزْمِنَةِ، وَالأَمْكِنَةِ، وَالأَحْوَالِ، وَالنيَّاتِ، وَالعَوَائِدِ»، وقال في مقدمته: «هَذَا فَصْلٌ عَظِيمُ النَّفْعِ جِدًّا، وَقَعَ بِسَبَبِ الجَهْلِ بِهِ غَلَطٌ عَظِيمٌ عَلَى الشرِيعَةِ، أَوْجَبَ مِن الحَرَجِ، وَالمَشَقَّةِ، وَتَكْلِيفِ مَا لَا سَبِيلَ إِلَيْهِ، مَا يُعْلَمُ أَنَّ الشرِيعَةَ البَاهِرَةَ التِي فِي أَعْلَى رُتَبِ المَصَالِحِ لَا تَأْتِي بِهِ». [٣] وهو كما قال ﷺ، وتقبّل منه، فكلُّ مُفتٍ يحتاج إلى هذا الفصل النفيس، حتى يعرف

(١) رواه مسلم: (١٣٣٣).

(٢) رواه البخاري: (١٥٨٤)، ورواه مسلم: (١٣٣٣).

(٣) إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم الجوزية:[٣/ ١١].

متى يكون تغير الفتوى صحيحاً، ومتى يكون غير صحيح، وما هي ضوابطه؟ وما هي أصوله؟ فهذا ممّا يُساعد العالِم، ويصونُه عن الوقوع في التَّحريف، والتَّغيير، والتَّبديل.

٦. الوضوح والبيان والبعد عن المجملات والعمومات مع تحديد الأهداف بموضوعيَّة وصفاء ونقاء:

وهو من معاني قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ [يوسف: ١٠٨]، وبعضهم يقرأ هذه الآية قراءةً مُجوَّدةً، يُراعي فيها الوقف والابتداء، هكذا:

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ ثمّ يقفون، ثمّ يستأنفون: ﴿ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾.

وكذلك يقرؤونها هكذا: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ ثمّ يقفون، ثمّ يستأنفون: ﴿ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾، وكلاهما له وجه من التفسير يصوبه، ﴿ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ ﴾ أي: نُنزِّه الله ﷻ من كلِّ نقص، فالإنسان وإن كان على بصيرةٍ من ربّه، لا يؤمَن منه الزلل والخلل، فسبحان الله.

وكذلك ممّا يدلُّ على الوضوح والبيان، والبعد عن المجملات والعموميَّات، مع تحديد الأهداف بموضوعية، وصفاء، ونقاء، قولُ الرسول ﷺ: **(تركتكم على البيضاء، ليلِها كنهارِها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك)**[1].

---

(١) المستدرك على الصحيحين، للحاكم: (٣٣١)، المعجم الكبير للطبراني: (٦١٩)، مسند الإمام أحمد: (١٧١٨٢)، وصححه الألباني في الجامع الصغير وزيادته: (٤٣٦٣).

وثمَّة ملاحظة عجيبة -لعلّ بعضنا وقف عندها- تتعلَّق بأهل الأهواء والمذاهب المنحرفة، وذلك أنه: كلَّما أوغل فردٌ أو مذهب أو طائفة في السرِّيَّة والغموض؛ زادت البدعُ والمنكرات، والبُعد عن الشريعة، ومثال ذلك: الرافضة، وما هو أكثر غلوّاً منها: النُّصيريَّة، ثمّ الدُّروز، فكلَّما كان المذهب موغلاً في السرِّية، وعدم الوضوح، كان أشدَّ انحرافاً.

وهذا الدِّين واضح سهل، يعرفه العالمُ، والعامِّيُّ، والرجل، والمرأة، والكبير، والصغير. كان أحد علماء علم الكلام يمشي يوماً تحيط به حاشيته وتلاميذه، فمرّوا بعجوز جالسة على قارعة الطريق، لم تُبالِ بموكب هذا العالِم، ما هشَّت له ولا بشَّت، ممّا لفت نظر أحد رجال هذه الحاشية، فقال لها متعجّباً: أما عرفتِ هذا الرجل؟ قالت له: ما عرفتُه! فقال لها: هذا الذي أقام على وجود الله ألفَ دليلٍ! قالت: إذن، فقد كان عنده ألفُ شكٍّ، وإلا لما احتاج إلى إقامة ألف دليلٍ! وهل يحتاج وجود الله إلى دليل؟

وفي كلِّ شـيءٍ له آيـةٌ تدلُّ على أنه الواحـدُ

فميزةُ هذا الدِّين هي الوضوح، والبعد عن السِّرية، خاصَّةً فيما يتعلّق بأحكام العقائد، قد تختلف الأمور من بلدٍ إلى آخرَ، كما هو معلوم، فإخواننا في روسيا مثلاً اضطُرُّوا للسرِّية والكتمان، لأن الإعلان ثمنُهُ القتل، كما قال حذيفةُ في الحديث الصحيح: كنَّا مع رسول الله ﷺ، فقال: «**أَحْصُوا لي كَمْ يَلْفِظُ الإِسْلَامَ! قال: فَقُلْنَا: يا**

رَسُولَ الله، أَتَخَافُ عَلَيْنَا، وَنَحْنُ ما بين الستمائة إلى السبعمائة؟ قال: إِنَّكُمْ لَا تَدْرُونَ، لَعَلَّكُمْ أَنْ تُبْتَلَوْا! قال: فَابْتُلِينَا، حتى جَعَلَ الرجل مِنَّا لَا يُصَلِّي إلا سِرًّا»[1].

والنَّبيُّ ﷺ كان قد بدأ دعوته سراً، وهذه السرِّية كانت في عصر صدر الإسلام، وكانت مرحلةً من مراحل الدَّعوة الإسلامية، وهي مرحلةٌ، مرَّ بها موسى ﵇، وأخوه هارون، في سياق دعوتهما لبني إسرائيل، كما يقول تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [يونس]. روي عن ابن عباس ﵄، في تفسير هذه الآية، «قال: كانوا يَفْرَقُون من فرعون وقومه أن يصلُّوا، فقال لهم: ﴿ وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ﴾، يقول: اجعلوها مسجدًا حتى تصلُّوا فيها»[2]، فكانوا كما كان الصحابة ﷺ في مكّة، يُصلّون سرًّا، خشيةَ وقوع الأذى عليهم من الكفار، فهذه السرِّية ليست هي ما نعنيه في هذا السِّياق، وهي من باب الوسائل العمليّة، بينما يدور حديثنا عن مبادئ الإسلام، وعن أصول الإسلام، ومنطلقات الإسلام، وكونِها واضحةً بيِّنةً جليَّةً، يفاصل عليها الإنسان، وذلك من مقتضيات قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ﴾ [الأنعام: ٥٥]. والذي ورد في أكثرَ مِن موضع من القرآن الكريم[3].

(١) رواه مسلم: (١٤٩).

(٢) تفسير الطبري: [١٥/ ١٧٢].

(٣) الأنعام: ٥٥، الأعراف: ٣٢ - ١٧٤، التوبة: ١١، يونس: ٢٤، الروم: ٢٨.

فالقرآنُ لا ألغاز فيه، والسنة واضحةٌ بيِّنة، فبمقدار وضوح منهج الإنسان وصفائه، يكون اطِّراده وثباته عليه، أمّا إذا كانت في المنهج رموز وألغاز وأسرار، فعند ذاك يبدأ الاضطراب والتغيُّر، فعلى جماعات الدَّعوة الإسلامية أن تدرك هذه الحقيقة المنهجية الناصعة، ومن ثمَّ تجتهدُ في سبيل أن تكون أهدافُها واضحةً بيِّنةً جليَّة، لا غموضَ فيها.

٧. الاعتدال، والواقعيَّة، والوسطيَّة، والتوازن، بلا إفراط، ولا تفريط:

فعلى الدَّاعية أن يلتزم في منهج دعوته بالواقعية، والاعتدال، والوسطيَّة، والتوازن، التي هي سمةُ هذه الأُمَّة، كما يقول تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة: ١٤٣]. حتّى يكتبَ الله ﷻ له التّوفيق والسّداد، ولذلك أشار أحد المشايخ إلى ملحظٍ دقيق، فقال: إنَّ الذين يقعون في الاضطراب في المنهج، لو تأملت في مسيرة حياتهم الماضية؛ لوجدت أنهم في فترةٍ من الفترات، قد جنحوا إلى نوعٍ من الغلوِّ، والإفراط، والتضييق، فخرجوا عن منهج الوسطيَّة، فوجدوا أنفسهم الآن، قد وقعوا في جفاء، وتفريطٍ، وتمييع، وذلك من باب ردّ الفعل المعاكس. وكذلك من وقع في الغلوِّ والإفراط، تجد أنه قد كان متساهلاً مضيِّعاً، وهذه حالةٌ غالبةٌ، وليست لازمة، وهي طبيعة بشرية، ولذلك آمل أن نجتهد في تربية نفوسنا على الاعتدال، والتَّوازن، وعلى منهج الوسطيَّة، فإذا ما طرق سمعَ أحدنا أمرٌ، فلحظَ

أنَّ فيه جنوحاً إلى الشدة أو الغلظة؛ فلينتبه وليتأمّل وليحذر، ودعونا نقف عند هذا المثال من السُّنَّة النبويَّة:

(عن ابن عباس ﷺ، قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٤ ﴾ [النور]. قال سعد بن عبادة: لهكذا أُنزلَت يا رسول الله)؟[1]، وفي روايةٍ أخرى عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: (قَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ: يَا رَسُولَ الله، لَوْ وَجَدْتُ مَعَ أَهْلِي رَجُلًا لَمْ أَمَسَّهُ حَتَّى آتِيَ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ؟ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: (نَعَمْ)، قَالَ: كَلَّا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، إِنْ كُنْتُ لَأُعَاجِلُهُ بِالسَّيْفِ قَبْلَ ذَلِكَ، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: (اسْمَعُوا إِلَى مَا يَقُولُ سَيِّدُكُمْ، إِنَّهُ لَغَيُورٌ، وَأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ، وَاللهُ أَغْيَرُ مِنِّي)[2]. وفي روايةٍ أخرى، قال رَسُولَ الله ﷺ: (أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ، فَوَ الله لَأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ، وَاللهُ أَغْيَرُ مِنِّي!).

إذا تأمّلنا المشهد، فسنلحظ وكأنّ الناس عجبوا من موقف سعد بن عبادةَ، فانظروا إلى جواب الحبيب المصطفى ﷺ: (أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ؟ فَوَ الله لَأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ، وَاللهُ أَغْيَرُ مِنِّي!) أي: فلا ينبغي أن تحمد هذه الغَيرة؛ لأنها خرجت عن الحدِّ المشروع، بلى إنّ لها بريقاً ووهجاً، وتجد تجاوباً وتفاعلاً من قبل سواد الناس، كما هو الحال في بعض الأمور المتعلّقة ببعض القضايا التي تستثير تجاوب الناس كالرُّجولة،

---

(١) تفسير الطبري: [١٩/ ١١١].

(٢) رواه البخاري: (٦٨٤٦)، رواه مسلم: (١٤٩٩).

أو الغيرة! والرسول ﷺ يعلّمُنا، أنّ هذه القضايا هي أيضاً تحتاج إلى ضبطٍ شرعيٍّ، فلذلك لـمّا رأى سعداً، قد مال إلى ذلك الجانب، وتجاوب معه آخرون، أراد أن يرُدَّ النَّاس إلى منهج الوسطيّة، وكأنه يقول لهم: فمن الذي أوجب الإتيانَ بأربعة شهود في هذه الحالة؟ ألستُ أنا الذي بيّنتُ لكم ذلك مبلِّغاً إيَّاه عن ربي؟ وهو بذلك يرُدُّ الأمر إلى نصابه: كتاب الله وسنّة رسوله، ليتّضح بالنَّظر إليهما مدى وسطيّة الموقف، أو تطرُّفه: إفراطاً أو تفريطاً، مع إقراره بغَيرة سعد، وثنائه عليه بالجملة، لكنَّ الغَيرة قد تُخرج صاحبها عن الحدِّ المشروع، كما حدث لسعدٍ ﷺ، فنبّه النبيُّ ﷺ إلى ذلك.

ومثالٌ آخر، نأخذه من هذه الواقعة المشهورة، التي رواها الإمام البخاريُّ عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ، أنه: (جاء ثلاثةُ رهطٍ، إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ فلمَّا أُخبروا كأنَّهم تقالُّوها، فقالوا: وأين نحن من النَّبيّ ﷺ، قد غُفر له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر؟ قال أحدهم: أمَّا أنا فإني أصلِّي الليل أبداً. وقال آخر: أنا أصوم الدهرَ، ولا أفطر. وقال آخر: أنا أعتزلُ النساء فلا أتزوج أبداً. فجاء رسولُ الله ﷺ إليهم، فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله، إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له؛ لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساءَ. فمن رغب عن سنتي فليس منِّي)![1]، فمنهج الوسطيّة، يحتاج إلى

(١) رواه البخاري: (٥٠٦٣)، ورواه مسلم: (١٤٠١).

أن يأطُرَ المسلم نفسه أطراً على موافقة الحقّ، والبعدِ عن الهوى، وأن يُروّض نفسه على ذلك.

وقد ألقى إليَّ أحدُ الإخوان من طلاب العلم المجتهدين استفهاماً إنكاريّاً، فقال لي: الآن ماذا نفعلُ من أجل دفع هذه المنكرات والمعاصي التي بدأت تسري في جسد مجتمعنا؟ هل نقف متفرّجين؟

قلت له: نحن والله لا نُريد أن نتفرّج، ولا يجوزُ لنا، ولا نظنُّ أنّا كذلك، والحمد لله، ولكن ما الذي تريدُنا أن نفعله؟ هل ترى الناسَ يستطيعون أن يفعلوا شيئاً آخرَ غيرَ الإنكار، وبيان الحقِّ، ومناصحة أولياء الأمور؟ أو نتهور؛ وعندئذٍ نقع في المشكلة التي وقع فيها بعض الشباب، لما غلب عليهم الانفعال، وجنحت بهم العاطفة، وسوّل لهم الشيطان أنَّ هذا منكرٌ ينبغي تغييره باليد، فكان التفجير والتدمير، وترويع الآمنين، وسفك دماء الأبرياء، وسبق ذلك التكفير والغُلوُّ؟

فالتَّربية على منهج الاعتدال والوسطية، تمنحك توازناً وثباتاً، بينما الجنوح إلى أحد الطَّرفين، يجعلُك متأرجحاً بينهما، هذا أمرٌ مشاهدٌ وبيِّن، فمن أقوى عوامل الثَّبات إذن: أن تعتدلَ في تفكيرك، وتطَّرِدَ في منهجك، فتكونَ معتدلاً متوازناً، ملتزماً بمنهج الوسطية الذي شرعه الله، فإذا رأيتَ أمراً فيه جنوحٌ لأحد طرفَيِ الأمر، فابتعد عنه؛ لأنه قد يقودك في يوم من الأيام إلى الطرف الآخر، والله المستعان.

٨. التلازم بين القول والعمل، والانسجام بين الظاهر والباطن:

يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣ ﴾ [الصف]، فالانسجام بين القول والعمل ضروريٌّ، فنفسك لن يقرَّ لها قرارٌ إلا بأن تكون آمراً وناهياً، بما تحقّق في سلوكك من المعاني والأخلاق، فبذلك يُكتبُ لك التَّوفيق والسّدادُ، ويطّرد ارتقاؤك وثباتك على المنهج، قال الله تعالى: ﴿ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝٤٤ ﴾ [البقرة].

ومما يدلك على أهمية العمل الصالح، ودوره في إحداث ذلك التَّوازن والانسجام قول النبي ﷺ: (بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم)[1]، ولا شكَّ أنَّ الاضطرابَ فتنة، وهذا الحديثُ، يعلمنا أنّ الأعمال، والطاعات، وألوان العبادة، هي من أهمّ وسائل دفع هذه الفتنة، والنَّجاة منها؛ مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۝٢٧ ﴾ [إبراهيم].

---

(١) رواه مسلم: (١١٨).

٩. التيسير المنضبط، وسعة الأفق، والبعد عن التشديد، والتنطع:

يقول الله تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ويقول تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج: ٧٨].

ويقول الرّسولُ ﷺ: **(إنما بُعثتم مُيسِّرين)**[١]، ويقول: **(يَسِّرا ولا تُعسِّرا)**[٢]، ويقول الرّسولُ ﷺ: **(إنَّ الدِّين يُسرٌ، ولن يُشادَّ الدِّين أحدٌ إلا غلبه)**[٣]، إلى غير ذلك من النُّصوص الدّالّة على أنَّ الدِّين منهاجُ الاعتدال والوسطيَّة واليسر، فمتى وجدتَ سبيلاً شرعياً للتّيسير على النَّاس، فافعل، وثِق بأنَّك ستكون ثابتاً على المنهاج بإذن الله تعالى، وكما قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: **(ما خُيِّرَ رسولُ الله ﷺ بين أمرين،**

---

(١) رواه البخاري: (٢٢٠)، من حديث أبي هُرَيْرَةَ قال: قام أَعْرَابِيٌّ؛ فَبَالَ في المَسْجِدِ؛ فَتَنَاوَلَهُ النَّاس فقال لهم النبي ﷺ: (دَعُوهُ، وَهَرِيقُوا على بَوْلِهِ سَجْلًا من مَاءٍ، أو ذَنُوبًا من مَاءٍ، فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ، ولم تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ).

(٢) رواه البخاري: (٣٠٣٨)، ورواه مسلم: (١٧٣٣)، من حديث أبي بُرْدَةَ عن أبيه عن جَدِّهِ قال: لـمَّا بَعَثَهُ رسول الله ﷺ وَمُعَاذَ بن جَبَلٍ قال لـهُمَا: (يَسِّرَا، ولا تُعَسِّرَا، وَبَشِّرَا، ولا تُنَفِّرَا، وَتَطَاوَعَا. قال أبو مُوسَى: يا رَسُولَ الله، إِنَّا بِأَرْضٍ يُصْنَعُ فيها شَرَابٌ من العَسَلِ، يُقَالُ له: البِتْعُ، وَشَرَابٌ من الشَّعِيرِ، يُقَالُ له: الـمِزْرُ فقال رسول الله ﷺ: (كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ)، «هذه رواية البخاري».

(٣) رواه البخاري:(٣٩)، من حديث عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قال: (سَدِّدُوا، وَقَارِبُوا، وَاعْلَمُوا أنه لَنْ يُدْخِلَ أَحَدَكُمْ عَمَلُهُ الجَنَّةَ، وَأَنَّ أَحَبَّ الأَعْمَالِ أدومها إلى الله، وَإِنْ قَلَّ).

إلا أخذ أيسرهما، ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً؛ كان أبعدَ النَّاس منه) [1]، وبعض النَّاس، يتصوَّر أنَّ الأخذ بالأشدِّ هو الأزكى والأفضلُ، وليس هذا صحيحاً، بل نجدُ للأسف أنَّ جنوحَ بعض الأخيار إلى نوعٍ من التَّشديد، في غير موضعه، بدافع الحرص على هداية النَّاس وحمايتهم من الوقوع في المعاصي، قد أدَّى إلى وقوع كثيرٍ من النَّاس في شِباك أصحاب التَّمييع، الذين يتتبَّعون الرخصَ، فصار لهؤلاء مكانةٌ وقبولٌ. وما دام الأمر دائراً، بين يُسر وأيسرَ منه، وكلُّه مباحٌ، فخذ الأيسَر، فهو منهج شرعيٌّ، ومنهج مطَّرد كان عليه رسول الله ﷺ، وكان عليه صحابته رضي الله عنهم.

ودعونا نقف الآن عند أنموذجٍ من العلماء، والدُّعاة المعاصرين، نحسب أنّ حياته كانت تجسيداً لمنهج التّيسير: الشَّيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله تعالى، نحسبه كذلك، ولا نُزكِّي على الله أحداً، ونحسبُ أنّه قد أفضى إلى ربّه، بمنهج ثابتٍ مطَّردٍ غير مضطرب، قائمٍ على التيسير الشرعيّ المنضبط، وأذكر أنّ النّاس كانوا عندما يعجزون عن حلّ المعضلات، يلجؤون إلى الشيخ عبد العزيز بن باز، فيجدون عنده مخرجاً، وليس ذلك لتساهلٍ فيه، حاشاه، لكن لقوَّة معرفته بربه، وعمق معرفته بأحكام هذا الدِّين.

وينبغي علينا أن ننتبه كذلك، إلى الفارق ما بين أن تُعامل الإنسان قبل وقوع الفعل، وأن تعامله بعدَ وقوع الفعل، فإذا وقع الفعل،

---

(١) رواه البخاري: (٣٥٦٠)، ورواه مسلم: (٢٣٢٧).

وجدتَ نفسك تبحث للإنسان عن مخرجٍ، أو مخارج مشروعة، وهذه سمةٌ من سمات هذا الدِّين، بخلاف ما إذا لم يقع الفعل، مثلاً: يأتيك إنسانٌ ويقول لك: هل يجوز أن أصلِّي وفي ثوبي نجاسة؟ تقول: لا يجوز؟ صلاتك باطلة. لكن لو قال لك أحدُهم: تذكّرتُ بعد الصَّلاةِ أنَّ ثوبي كانت فيه نجاسةٌ، لم أقم بإزالتها لنسياني إيّاها، وعدم تذكّرِها إلا بعد الفراغ من الصّلاة؟ والمسألةُ خلافيَّةٌ معروفة، فمن العلماء من يوجب عليه إعادةَ الصَّلاة، ما دام أنَّه قد عَلم بالنّجاسة قبلها. قلت: لا يجبُ عليه ذلك، لأنه هنا معفوٌّ عنه، وهنا يتجلَّى منهج التَّيسير. أمّا لو قال: هل يجوز لي أن أُصلِّي بهذه النَّجاسةِ الصَّلاةَ الأخرى؟ فعندئذٍ نقول له: لا يجوز، وصلاتك باطلة.

إذن، منهج التيسير، يُفرِّق في أحيان بين حالتي: ما قبلَ وقوع الفعل، وما بعدَ وقوعه، ولا يعني هذا التزام الفرق دائماً.

فنحن بحاجةٍ إلى منهج التَّيسير المستند إلى الضَّوابط الشرعيّة، وما أعجبَ كلمةَ سفيان الثَّوريّ إذ يقول: «إنَّما الفقه الرُّخصة من ثقةٍ، وأمَّا التّشديد فيُحسنه كلُّ أحد»(١)، فالفقه كلُّ الفقه، هو التَّيسير على النَّاس، والتوسعةُ عليهم، وذلك استناداً إلى دليل، خلافاً لمن يرفعُ راية التَّيسير بلا دليلٍ، فأولئك ميّعوا الدِّين، وأحلُّوا أموراً اتّفق جمهورُ العلماء على تحريمها، فأنَّى لهم القولُ بحلّها؟ وما هو العلم الذي علموه، وجَهِلَه علماءُ الأُمَّة المتقدِّمون؟

---

(١) المجموع، للنووي: [١/ ٤٢].

فالتزام منهج التيسير في حياتك، مع نفسك وأولادك وعائلتك وطلابك، يُعينُك على الاستمرار والثَّبات؛ لأنَّ جنوحك إلى شيء من التشديد قد يتحوّل يوماً ما، عندما تكتشفه في نفسك، إلى نوعٍ من التّساهل والتّمييع، فيقول النَّاس: قد تغيَّر منهجه واضطرب. والله المستعان.

١٠. البعد عن التبعية والتقليد والتعصُّب والحزبيَّة:

من أخطر ما تعاني منه الأُمَّة: قضية التقليد والتبعية والتعصب والحزبية، وكما أنّ المشركين في مكّة لـمّا جاءهم الهدى من ربّهم؛ قالوا: ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الزخرف]، ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الزخرف]، كذلك نرى بعض النَّاس اليوم، يُسلم عقله لبعض المتبوعين، من رئيس أو شيخ، أو بعض من يُشاركه في الانتماء لهذه الجماعة أو تلك، على حد قول القائل:

لا يسألونَ أخاهُم حين يندُبُهم

فـي النَّائبات على ما قالَ برهاناً

وهو معنىً شريفٌ، وموقفٌ مُنيف، إزاء ما يقتضيه واجبُ الأُخوّة في النّائبات، بيد أنّ هؤلاء المتعصبين، يضعونه في غير موضعه، ويسحبونه إلى ما لا يليق به من معاني التّعصّب والحزبيّة المقيتة.

إنّ التعصبَ من قبل بعض طلاب العلم، للأفراد أو للجماعات،

والتَّقليدَ لبعض العلماء والدُّعاة، من شأنه أن يؤدِّيَ إلى حدوث الاضطراب، وبالمقابلِ فإنّ تجريد الاتّباع لله وحده، ولسُنَّةِ نبيِّه ﷺ، هو مَظِنَّةُ الثَّبات والاطِّراد في المنهج، وذلك يعني أنّ طالب العلم عليه أن يجتهدَ في معرفة وجه المسألة، ثم يجتهد في معرفة جوابها ممّن يأنسُ فيه ديناً، وورعاً، وعلماً، ناظراً في ذلك إلى الدليل، لا إلى مكانة هذا العالِم، أو الدَّاعية في نفسه، فالبعدُ عن التّبعيّة العمياء، والتّعصُّب لفردٍ، أو جماعةٍ، أو جنسٍ، أو بلدٍ، هو ممّا يُعين على الثَّبات والاطِّراد.

١١. التقوى، والورع، والصدق، والشجاعة، ومجاهدة النفس:

يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ [التوبة]، ويقول تعالى: ﴿ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٨]. فتحلّي المرء بالتَّقوى، والورع، والصِّدق، والإخلاص، ومجاهدة النَّفس، مما يُعينه -بإذن الله- على الاطِّراد في المنهج والثَّبات، وهي معانٍ وقيمٌ كبيرة، لكنَّ تحقيقَها ليس بالأمر اليسير، فينبغي على الإنسان، وخاصّةً من يكونُ في مقام ولاية الأمر، ومقام الفتوى، عندما تُعرض عليه مختلفُ المسائل، أن يتحلّى بالتّقوى والورع، والصِّدق، ومجاهدة النَّفس، وأن يبتعد عن الهوى، ويتجنّب التَّأويل الذي لا مُسوّغ له، وأن يجتهد في أن يكون بعيداً عن مواطن الفتن، ما ظهر منها وما بطن، يقول الله ﷻ: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [ص: ٢٦].

١٢. المراجعة المستمرَّة، والتقويم المطَّرد، ومحاسبة النفس:

وكما في الخبر: «حاسبُوا أنفسَكم قبل أن تُحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن تُوزنوا، فإنَّه أهونُ عليكم في الحساب غداً: أن تُحاسِبوا أنفسكم اليوم، وتزيَّنوا للعرض الأكبر، ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحاقة]»[1]، فالمراجعة، والتقويم المطَّرد، والمحاسبة، قيمٌ شرعيّةٌ مستقرّة، وإضافةً إلى ذلك، ينبغي أن تكون عند المرء الشجاعةُ، والقوة الكافية للرجوع إلى الحقِّ؛ إذا ما بان له وجهُه، وأن يتحلّى في ذلك بالحكمة والحِلم، وأن يسمعَ إلى نصح الآخَرين وملاحظاتِهم.

وهذه صفاتٌ يسهل ادّعاؤها، ويكثر التنظير حولها، لكن تطبيقها ليس بالأمر اليسير، فالإنسان قد يُفتي بفتوى، تشتهر عنه، ويتناقلها الناس عبر وسائط الإعلام المختلفة، ثمّ يتّضح لهذا المفتي أنّ الحقَّ والصواب بعيدٌ عنه، فعندئذٍ يكون الرجوعُ إلى الحقِّ، والتراجع عن الباطل صعباً، خاصة إذا كانت فتواه الأولى موافقةً لأهواء بعض الناس ورغباتهم، لنأخذ مثالاً: إحدى الشركات المساهمة، يبدو أنّ في نشاطها شبهةً، أو نسبةً يسيرةً من الرِّبا، عُرض على هذا المفتي أمرها،

---

(١) قال الشيخ الألبانيُّ: «موقوف، علقه ابنُ الجوزي في: (تاريخ عمر بن الخطاب) ص١٧٦-١٧٧، عن ثابت بن حجاج، قال: قال عمر: فذكره، وقد وصله أبو نعيم في حلية الأولياء: [١/ ٥٢] من طريق جعفر بن برقان، عن ثابت بن حجاج، وإسناده جيِّد في حلية الأولياء)... إن كان ثابتٌ سمعه من عمر؛ فإنَّ صورته صورةُ المعلق المنقطع...، والله أعلم».

سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة:[٣/ ٣٤٦].

عجيبٌ هذا الثَّباتُ من أبي بكرٍ ﷺ، مع أنّه كان أشدَّهم حُبّاً لرسول الله ﷺ، والصحابة ﷺ لم يكونوا يُكذّبون الموتَ، ولكن شدَّة الهول، وعظم المصيبة، وحسبُك بها من مصيبة! ولذلك تلحظون في الدُّعاء الذي تدعون به صباح مساء إذا تأملناه: (اللهم أرني الحق حقاً، وارزقني اتباعه)[1] إشارةً إلى أنّ بعض الناس قد يُريه الله ﷻ الحقَّ حقاً، لكن دون أن يرزقه اتِّباعه، وبعضَ الناس يريه الله الباطلَ باطلاً، لكن لا يرزقه اجتنابه! فبعض الناس يعرف أنَّ الربا حرامٌ، وأنه باطل، لكن لا يستطيع أن يتخلى عنه. وبعض الناس يعرف أن الدخان حرام، بلا شكٍّ ولا جدال، ولكن يقول: قد جرى في دمي، ولا أستطيع أن أتخلّص منه! فلذلك جاء الدعاءُ شاملاً، لجانبي التوفيق في العلم والعمل: (اللهمَّ أرني الحقَّ حقاً، وارزقني اتِّباعَه).

إنَّ أبا بكر ﷺ قد أراه الله الحقَّ حقاً، وثبَّته عليه، يومَ وفاة الرّسول ﷺ، وعند خروج جيشِ أسامة، وكذلك في قتال المرتدِّين، وهي مواقفُ بلغ فيها البلاءُ ذروته، واستبدَّ بالمسلمين فيها الخطب، فكان أبو بكرٍ ﷺ صِمام الأمان.

ولذلك فإنّ قراءة سيرة أبي بكرٍ، تمنح المرءَ زاداً غنيّاً من الثَّبات عند الفتن، والاطِّراد في المنهج، وتُقدّم له درساً بليغاً، في حسن التصرّف عند المدلهمّات؛ عندما يحدث الاضطراب، وتختلُّ الموازين، وكذلك سيرة عمر ﷺ، فله مواقف الثَّبات المشهودة المشهورة في الفتن.

---

(١) حديث مشهور ينسب لعمر ﷺ، قال السبكي في طبقات الشافعية: [٦/ ٣٢٥]: «لم أجد له إسناداً»، قال العراقي في تخريج الإحياء: لم أقف لأوله على أصل.

وأستشهدُ في هذا السّياق بما حكاه أحد الإخوان ممَّن نحسب أنّ المحن والابتلاءات قد صقلته، وقوَّمَت عوده، يقول: لقد لمستُ أنّي لـمَّا تنزل بي الفتنةُ العظيمة، يُصيبني لحظتَها من الغمِّ والهمِّ، فإذا اتَّخذتُ قراري -وقد يكون صعباً شاقاً- وجدت الشُّعور بالراحة واليُسر يغمرُني بعده مباشرةً، سبحان الله! حتى إني أتساءل: هل كان الأمر يحتاج إلى ذلك الهمِّ والغمِّ، والشعور بالصعوبة والمشقَّة؟ وسببُ ذلك، هو أنّ هذا الأخ قد وطَّنَ نفسه على قول الحقِّ في أيِّ باب، وإذا فعلتَ ذلك يسهُل الأمر عليك بإذن الله وتوفيقه.

١٦. دراسة الأخطاء التي وقع فيها المصلحون:

أُدرس الأخطاء التي وقع فيها المصلحون، من قبلك، ومن حولك، حتى لا تقع في مثلها، يقول الله ﷻ: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، وتجارب الأمم والأفراد ثروات عظيمةٌ جداً، ولذا نجد في القرآن تنويهاً بهذا المعنى، وحثّاً على الاستفادة من تجارب الأنبياء عليهم وعلى نبيّنا أفضل الصلاة والسلام، حيث جاء في القرآن في عدة مواضع، قوله سبحانه: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠]، ولكن هذه تقرأ للاستفادة منها، فهم مسددون بالوحي معصومون، كما نجد في القرآن معالجةً لما مرّ بالنبيِّ ﷺ من تجارب ومواقف وابتلاءات، كما في سورة عبس، والتحريم، والأنفال، وكذلك نجد فيه ذكراً لما مرّ

بالصحابة ﷺ، فدراسةُ سير المتقدمين من المصلحين، وما وقعوا فيه من أخطاء، يُعد من أهم عوامل الثَّبات، وعدم الاضطراب.

١٧. التخطيط السليم يُساعد على اطِّراد فقه الواقع:

وموضوع فقه الواقع، يَلقى اليوم اهتماماً كبيراً مستحقّاً، ويتمّ تداولُه على صفحات الصحف، حتى إنني قرأت إعلاناً صادراً عن إحدى الجامعات، تعلن فيه عن وظيفة محاضرٍ، وتشترطُ أن يكون متخصصاً في (فقه الواقع)، ونحن بحاجةٍ ماسَّةٍ اليوم إلى فقه الواقع، حتى نطّلع على ما يُخطّط له أعداء أمّتنا، وحتى نُحيط علماً بما يدور حولنا من الوقائع والأحداث، فلطالما أُتينا من قِبل جهلنا بهذا الفقه، على الرغم من أنّ القرآن الكريم ينبّهنا إليه في آياتٍ عديدة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأنعام]، قرئ (سبيلَ) بالنصب، وقرأه حفص بالرفع، وكلها سبعية.

فاستبانة سبيل المجرمين، نوعٌ من أنواع فقه الواقع، وهو فقه يستهدف أن تصدر الأحكام متوازنةً، متجاوبةً مع الوقائع التي تتعلَّق بها الفتوى، أو الوقائع التي يتعلّق بها الأمر الذي نُريد الحكم عليه، وذلك حتى يكون حكمُنا على بيِّنة، وبصيرة، ودرايةٍ، وحتى لا نتأرجح بين أمواج الوقائع، فتأخذنا يَمنةً ويَسرةً، بل نكون محيطين بعلمها، ومدركين لأبعادها ودلالاتها[1]، والذي يبين لنا سبيل المجرمين ويكشف لنا ما فيه، هو الوحي الذي فصله الله تفصيلاً.

(١) فقه الواقع، للمؤلف: [١/ ٦-١٢].

١٨. تصوُّر عقبات الطريق، وما يكتنف طريق الحق من شدَّة وعناء:

وهذا السببُ من أسباب الاطِّراد، مقرّرٌ في النُّصوص الشرعيّة من القرآن والسنة، التي وصفت مختلفَ العقبات، وألوان المعاناة التي يُمكن أن يلقاها المسلم في طريق حياته، وذلك حتى يتصوّرها أمامه، ومن ثمّ يجتهدُ في الأخذ بالأسباب الشرعيةِ ليعمل على تجاوزها، فمن هذه النصوص قولُ الله ﷻ: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [البقرة]، وقوله: ﴿ الم ﴿١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [العنكبوت]، وقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ ﴾ [الحج: ١١]، وقوله: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ ﴾ [العنكبوت: ١٠]، فإذا قدَّر الله ﷻ -بمقتضى هذه الآيات- على دعاة الحقّ أن يُسجن أحدهم، أو أن يُفصل من وظيفته، وما إلى ذلك من صنوف البلاء؛ ألفيتَ كثيرين منهم قد تساقطوا وتغيَّروا، وتنكَّبوا الصراط المستقيم، لأنّهم لم يجتهدوا ابتداءً، في تصوّر هذه المحن والرزايا.

١٩. دراسة فقه الجماهير:

ودراسة فقه الجماهير، مبحث طالما تردَّد في صدري، ورغِبت في الوقوف عنده، والاجتهاد في تقرير مسائله، وطرحِها طرحاً مستقلاً،

ولكن تحول بيني وبين ذلك الشواغل، بيد أني آمل أن أتمكّن من معالجته في القريب العاجل، وذلك في إطار البحث عن الأسلوب الأمثل، للتعامل مع القوى المؤثرة في المجتمع، كالسُّلطةِ، والعلماءِ، والقرناءِ، والأتباعِ، إضافةً إلى جماهير الناس، وذلك حتى لا تزلَّ قدم بعد ثبوتها.

أمّا في هذه السّانحة، فسأُشير إشارةً إلى هذا الفقه، والموقف منه، وهنا فائدةٌ تتعلّق بالشيخ الدكتور: جعفر شيخ إدريس، وهو رجل أحسبُه -والله حسيبه- من الدُّعاة الصادقين، ولا أزكِّيه على الله، فهو ممن عُرف بحرصه على التزام منهاج أهل السُّنَّة والجماعة، كان يتحدث في يومٍ من الأيام، أمام طائفة من الشباب العرب والمسلمين، في إحدى الولايات الأمريكيّة، فعبّر عن موقفه من إحدى القضايا الكبيرة، بوضوحٍ وجلاءٍ وقوّة، فضجَّت جماهيرُ الحاضرين عليه، واستنكروا ما ذهب إليه، لكونه قد عبّر عن موقفٍ مخالفٍ لما ذهب إليه عامَّة الناس، وهذا هو فقه الجماهير التي تريد من كلّ خطيبٍ أن يقول كلاماً يوافق أهواءها، وأن يحملها على مركب العاطفة والهوى، والانفعال غير المؤطَّر بحدود الشرع التي يعتقدها المخاطب. وكان الشيخ جعفر شيخ إدريس واثقاً من صحَّة موقفه، وكونه منضبطاً بالضوابط الشرعية، ومخالفاً لأهواء الذين احتجُّوا عليه، فخاطبهم بكلماتٍ عجيبة، قائلاً: مهلاً! أنتم لا ترضَون للعالم أن يكون بوقاً للدولة؟ قالوا: نعم! قال: وأنا لا أرضى لنفسي أن أكون بوقاً للجماهير! ونقلتُ هذا الكلام، لـمّا سمعته، إلى شيخنا العلامة محمد

بن عثيمين ﷺ، وكان ذلك في عام ١٤١٢هـ بمكة المكرّمة، وكان في المجلس بعض المشايخ، قلت له: يا شيخنا، بلغني أنَّ الشيخ جعفر شيخ إدريس يقول: كذا وكذا! فقال: صدق، وأنا أقول: العلماء ثلاثة: عالم دولة، يُخرج لها ما تُريده من الفتاوى، وعالم أمة، يسعى لإرضاء سواد الناس، وعالمُ ملَّة، وهو الذي يدور مع الحقِّ حيث دار، سواءٌ رضيت الدولة، أو لم ترضَ، وسواءٌ أيّدته الجماهير، أو لم تؤيّده. فكما وجدتُ على كلام الشيخ جعفر نوراً، كذلك انشرح صدري وسُررت بهذا الفقه من الشيخ محمد بن عثيمين ﷺ، ونقلتُه في بعض محاضراتي وكتبي، فالعالم الحقيقيُّ هو عالم الملَّة.

وتتمثل خطورة ضغط الجماهير؛ في أنّها تضغط على أتباعها وأهل ودِّها، من القادة، والدُّعاة، والعلماء، وتُوجِّههم ليسيروا في مساراتٍ بعينها، والعالم إنّما استحقَّ هذا الاسم، بما آتاه الله من العلم، من أجل أن يقود الناس إلى طريق الحقِّ والهداية، فإذا به تحت الضغط ينقادُ إليهم، ويصيرُ تابعاً لأهوائهم؛ إذن فما فضل علمه؟ وما فائدة ما آتاه الله من الكتاب والحكمة؟ وكيف يرضى أن ينطبق عليه المثل الغربي القائل: أنا قائدكم دلُّوني على الطريق؟ يالَلسُّخرية المريرة! ويا للمأساة الكبيرة! عندما يتحوَّل العالِـم إلى بوقٍ تنفخ فيه الجماهير، بأهوائها ورغائبها، والأمر لا يخلو من خفاء وغموض، حيث تلحظ بين هذه الجماهير وبين قائدها التابع لها، تجاوباً، وتفاعلاً، وأخذاً، وردّاً، فترى هذا الخطيبَ المفوَّه، يلقي درسه أمام الناس، تحسبه يُحكم سيطرته بوعيه وعلمه على عقولهم، لكنه في الحقيقة عاجزٌ عن قول كلمة الحقّ،

واتّخاذ الموقف الشرعيّ الواجب، لأنه يخشى إن فعل ذلك أن ينفضّ هؤلاء الناس عنه، بل إنه بحاجةٍ إلى تقوى، وورعٍ، وصدقٍ مع الله ﷻ، وتجرُّدٍ؛ ذلك أنَّ مخالفةَ الجمهور من أصعب الأمور، فالإنسان حريصٌ على سمعته، والجمهور غالباً مصدر هذه السُّمعة، لذا فهو يخشى أن يسقط من أعينهم، فتجده لا يقوى على مخالفة ما يريدونه، وقد يتَّفق أن يكون في بطانة هذا العالم بعضُ من يُعبّرون عن قيم الجمهور، ويُعبّرون عن مطالبه الصريحة لدَى هذا العالم، لكن ذلك ليس ضروريّاً، إذ يكفي أن يعرف هذا العالمُ أنَّ هذه الفتوى، أو هذا الموقف، سيجرُّ عليه سخط الجماهير، على الرغم من أنه يعلم بينه وبين ربه أنها الحق، وأنها الصدق.

إنَّ دراسة فقه التعامل مع الجماهير، والقوى المؤثرة عموماً، كالسَّلاطين، والعلماء، والدول، وغيرهم، من أقوى ما يساعد على الثَّبات، فيتوازن الإنسان، ويصير -كما قال الشيخ محمد بن عثيمين- عالمَ ملَّةٍ، لا تميل به الأهواء يَسرةً ويَمنةً، ضارعاً إلى ربّه بالدعاء: (اللهمَّ أرني الحقَّ حقّاً، وارزقني اتِّباعه، وأرني الباطلَ باطلاً، وارزُقني اجتنابه).

ولا ينبغي أن ننسى إثبات مَعْلَمٍ كبير من معالم هذا الفقه، ألا وهو قول الرسول ﷺ: **(من التمس رضاء الله بسخط الناس؛ كفاه الله مؤنة الناس، ومن التمس رضاء الناس بسخط الله؛ وكله الله إلى الناس)**[1].

(١) سنن الترمذي: (٢٤١٤)، وصحَّحه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي: (٢٤١٤).

٢٠. من هم الجماعة؟

عند الحديث عن منهاج أهل السنة والجماعة يرد هذا السؤال: من هم الجماعة؟

وفي الإجابة عن هذا السؤال، وجدتُ في «إعلام الموقعين» كلاماً قيِّماً، للإمام العلامة ابن القيِّم ﵀، من حقِّه أن يُكتب بماء الذهب، وهو يأتي إجابةً عن السؤال المهمِّ: من هم الجماعة؟ وأي سواد ذلك الذي يلزم اتباعه؟

يقول ابن القيّم: «واعلم أنَّ الإجمـاعَ، والحجة، والسَّواد الأعظم، هو العالِـمُ صاحبُ الحقِّ، وإن كان وحده، وإن خالفه أهلُ الأرض»[١]، ونقل ابن القيّم قولَ عبد الله بن مسعود ﵁، لعمرو بن ميمون الأوديِّ: «أتدري ما الجماعة؟ قلت: لا. قال: إنَّ جمهور الجماعة هم الذين فارقوا الجماعة، الجماعةُ ما وافق الحقَّ، وإن كنت وحدك. وفي لفظٍ آخر: فضرب على فخذي، وقال: ويحك! إنَّ جمهور الناس فارقوا الجماعة، وإنَّ الجماعة ما وافقَ طاعة الله تعالى»[٢].

فهاهنا مفهوم الجماعة الصحيح، الجماعة التي على الحق، الجماعة التي تتبع سواد الجماعة الأولى من أصحاب رسول الله ﷺ، ومن جاء بعدهم من سلف الأمة، وإن كان عددهم قليلاً في عصر أو مصر معين، قال ابن القيِّم ﵀: «لا تستصعب مخالفة الناس والتحيُّز إلى الله

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن قيِّم الجوزية: [٣/ ٣٠٨].

(٢) المرجع السابق نفسه.

ورسوله ولو كنت وحدك! فإن الله معك وأنت بعينه وكلاءته وحفظه لك، وإنما امتحن يقينك».[1] وقد أثنى الله تعالى على إبراهيم ﷺ فقال: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ [النحل: ١٢٠]، وقد مرَّت عليه أوقاتٌ لم يكن فيها على الحق إلا هو وزوجه سارة، فقد صحَّ قوله: «يا سارة، ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك»[2].

وليس معنى هذا أن يستبد المرء برأيه، ثم يقول: الجماعة ما وافق الحق ولو كنت وحدك! فهذه كلمة حق أريد بها باطل! لأن الخير باق في هذه الأمة إلى قيام الساعة، وأولى الناس بالخير في الأمة علماؤها، ولهذا جعل الله إجماعهم حجة، وأمر الناس بالرجوع إليهم، ولهذا فسر جماعة من المحدِّثين الجماعة بالعلماء، قال الترمذي ﷺ: «الجماعة عند أهل العلم هم أهل الفقه والعلم والحديث». قال: «وسمعت الجارود بن معاذ، يقول: سمعت عليَّ بن الحسن يقول: سألت عبد الله بن المبارك: مَنِ الجماعة؟ فقال: أبو بكر وعمر. قيل له: قد مات أبو بكر وعمر. قال: فلان وفلان. قيل له: قد مات فلان وفلان. فقال عبد الله بن المبارك: أبو حمزة السكري جماعة. قال أبو عيسى: وأبو حمزة هو محمد بن ميمون، وكان شيخاً صالحاً، وإنما قال هذا في حياته عندنا»[3]. وأبو حمزة أحد أهل العلم والحديث، فالذي يخالف عامة العلماء، ويقول: الجماعة ما وافق الحق ولو كنت وحدك، يُخشى

(١) الفوائد، ص١١٦.

(٢) صحيح البخاري (٣٣٥٨) وانظر مسلم (٢٣٧١).

(٣) سنن الترمذي ٤/ ٤٦٦ (٢١٦٧).

عليه من مفارقة الجماعة! أما إن وافق بعض أهل العلم المشهود لهم فلا يضره وإن كانوا قلة، وإن كانوا في عصر ليس عصره، أو مصر غير مصره، ما كان الدليل معه، بل يتعين عليه أن يخالف جماعته متى خالفت ما كان عليه صحابة رسول الله ﷺ.

وفهم هذا المعنى، يُعينُ الإنسانَ أبلغَ الإعانة على الثَّبات والاطِّراد في المنهج دون تشنج أو اغترار؛ لأنك إذا عرفتَ أنَّ الجماعة هي التي تكون على الحق، على ما كان عليه الجيل الأول، قلَّ أفرادُها، أو كثروا؛ دفعكَ ذلك إلى توخِّي الحقِّ في مظانّه، أي في النُّصوص الشرعيّة وكلام السلف، ثم تقويم وتقييم الجماعات من خلال ميزانها، أما الاعتقاد بأنَّ الجماعة هي الكثرة والسَّواد الأعظم، فإنه من أسباب الضلال، خاصّةً وأن الضعف والانحلال قد بدأ -منذ نهاية عهد القرون الفاضلة- يسري في جسد الجماعة، فصار الحقُّ الحقيقُ بالقَبول أنَّ الجماعة هي الثَّبات على الحقِّ، ولو خالفك عموم الناس.

ثمّ يقول ابن القيّم: «وقال بعض أئمَّة الحديث -وقد ذُكر له السَّواد الأعظم- فقال: أتدري ما السَّوادُ الأعظم؟ هو محمد بن أسلم الطُّوسيُّ وأصحابه، فمُسخ المختلفون الذين جعلوا السَّواد الأعظم والحجة والجماعة هم الجمهور، وجعلوهم عياراً على السُّنَّة، وجعلوا السُّنَّة بدعةً، والمعروف منكراً؛ لقلة أهله وتفرُّدهم في الأعصار والأمصار، وقد شذَّ الناس كلُّهم في زمن أحمد بن حنبل إلا نفراً يسيراً، فكانوا هم الجماعة»، ثمّ انظروا ماذا يقول ابن القيّم: «وكانت القضاةُ حينئذٍ، والمفتون، والخليفةُ، وأتباعُه، كلُّهم هم الشاذُّون، وكان الإمام

أحمد وحده، هو الجماعة»، عجيبٌ والله هذا الكلام! فإنه يقرِّر مفاهيم إيمانيّةً كبيرةً، ويكشفُ بوضوح عن خطأ المفهوم السائد عن الجماعة، ويقود إلى طرح التساؤلات عنها:

فمن هي الجماعة؟ وما هي موازينُها؟ وما هي ضوابطها؟

يحرِّر ابنُ القيم بهذا الكلام البديع العظيم عناصر الإجابة الشافية عن هذه الأسئلة المهمّة، من خلال توكيده على أنّ الخليفة المأمون، وقضاته، وولاته، والفقهاء، والمفتين، كلَّهم على الباطل، وأحمد وحده على الحقِّ[1]، لأنه قال بالقول الذي قالته جماعة المسلمين الأولى ومن تبعها بإحسان.. إلى أن حدثت الفتنة. وفي الحقيقة لم يكن ﷺ وحده، ولكن رفاقه؛ منهم من استتر، ومنهم من قُتل، ومنهم من أُكره حتى وَرَّى.. وقد ذهب بعض الملبسين إلى الخليفة المأمون، وقالوا له: «تكون أنت، وقضاتك، والمفتون، ومن معك، كلهم على الباطل، وأحمد هو الذي على الحقِّ! فأوغروا صدره ضدَّه، فأخذه المأمون بالسياط والعقوبة بعد الحبس الطويل، فلا إله إلا الله! ما أشبه الليلة بالبارحة! وهي السَّبيل المهيع لأهل السُّنَّة والجماعة، حتى يلقوا ربهم، مضى عليها سلفهم، وينتظرها خلفهم: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب]. ولا

(١) سيرة الإمام أحمد بن حنبل، لأبي الفضل صالح أحمد بن حنبل: [٥/ ٣١١-٣١٢]، تاريخ مدينة دمشق: [١/ ٤٩-٧٢].

حول ولا قوَّة إلا بالله العليِّ العظيم»[1]، رحم الله العلامة ابن القيّم، فلقد أبدع وأمتع في بيان هذه المعاني الكبيرة.

٢١. الاستعداد للتضحية، في سبيل المبادئ والأهداف:

وذلك يقتضي رفضَ المساومات، مع الصبر والتحمل، طال أمد الابتلاء أم قصر، ومن أقوى ما يدلُّ على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ ﴾ [يونس]. هكذا ينبغي أن يكون الدَّاعية، مستعدَّاً للتضحيات، على قدر التحدي! وإلا فلزومُ طريق السلامة، والثبات عند الحدِّ الأدنى من الإنكار بالقلب، والنَّأي بنفسه عن تحمُّل تبعاتِ موقفٍ لا يستطيعُ الوفاء بمتطلّباته.

جاء أحد الدعاة لسماحة الشيخ الوالد عبد العزيز بن باز ﷺ، وقال له: يا شيخ.. أريد أن أسألك: ماذا أفعل لو جاءني أمر بإيقاف دروسي، أو محاضراتي، هل أتوقّف؟ قال له: توقف. قال: لماذا؟ قال: أخشى أن تُفتن، وتُبتلى فلا تصبر، فتَضلَّ، ويَضلَّ الناس من خلفك. ولا شكّ أنّ هذا فقه سديدٌ راشد.

---

(١) إعلام الموقعين، لابن القيم: [٥/ ٣٨٨-٣٩٠].

٢٢. قوة الصلة بالله ﷻ، والالتجاء إليه، مع سؤاله الهداية والتوفيق والسداد:

مصداقاً لقوله تعالى في الحديث القدسيِّ: (فاستهدوني أهدكم)(١) مع الاستعانة بالعبادة على مشقَّات الطريق: ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [البقرة: ٤٥]. وكثرةِ الدعاء، والاستغفار، آناءَ الليلِ، وأطرافَ النَّهار، ولنلحظ قول الله تعالى في سورة الإنسان، حيث بدأت الآياتُ بالحضِّ على الصَّبر والثَّبات ورفض المساومة: ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [الإنسان]؛ ليجيء في ختامها قولُه تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [الإنسان]، وفي هذا إشارة إلى أن اللجوء إلى الله ﷻ، بالعبادة والتسبيح وقيام الليل، هو خيرُ معينٍ على تحقيق الثَّبات الذي حثّت عليه الآياتُ قبلها.

وعلى ذات النّهج، يتقرَّر هذا المعنى في سورة الحجر: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الحجر]. وفي سورة المزمل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ ﴾ [المزمل]، وبذلك يتحقّق الاطِّراد في المنهج.

---

(١) رواه مسلم: (٢٥٧٧)، من حديث أبي ذَرٍّ عن النبي ﷺ فِيمَا رَوَى عن الله ﷻ أَنَّهُ قال:... يا عِبادِي كُلُّكُمْ ضالٌّ إلا من هَدَيْتُهُ فاستهدوني أَهْدِكُمْ..).

إنَّ تأثير العبادة على الاستمرار في الطريق عجيبٌ، فالتَّضرع إلى الله، واللجوء إليه، والتَّوكل عليه، وتخلية القلب من التعلق بغيره ﷻ، كلُّ هذا يعين المرء على الثَّبات أيَّما إعانةٍ، ولذلك قال النبيُّ ﷺ: (العبادةُ في الهرج كهجرةٍ إليَّ)(١)، ففرُّوا إلى الله، واجتهدوا في عبادته.

بعض الناس إذا نزل به البلاءُ، فرَّ من الله، ولم يفِرّ إليه، ولكن أين الملجأ منه إلا إليه؟ وكان النبيُّ ﷺ إذا حَزَبَه أمرٌ قال: (يا بلال، أرحنا بالصلاة)(٢)، فما أحوجنا إلى ذلك!(٣).

أيا مـن ليس لي مـنه مـجيـرُ ... بفضلك من عذابك أستجيرُ
أفِرُّ إلـيــك منك وأيــن إلا ... يفرُّ إلـيـك مـنك الـمستجيرُ

هذه بعضُ الأسباب المهمَّة، التي من شأنها أن تحقّق -بإذن الله- الاطِّراد في المنهج، وقد اختصرتها، بيد أنّها تدور كلُّها في إطار قوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾ [هود: ١١٢]. وقد قيل للنبي ﷺ: يا رَسُولَ الله، قَدْ شِبْتَ. قال: (شَيَّبَتْنِي هُودٌ، وَالْواقِعَةُ، وَالـمُرْسَلاتُ،

(١) رواه مسلم: (٢٩٤٨)، من حديث معقل بن يَسارٍ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قال:(الْعِبَادَةُ في الْهَرْجِ...).

(٢) مسند الإمام أحمد: (٢٣١٣٧)، ورواه أبو داود في السنن: (٤٩٨٥)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح: (١٢٥٣).

(٣) انظر بتوسّع فصل: أثر العبادة في الثَّبات عند الفتن، في كتاب: وكانوا لنا عابدين، للمؤلف.

وعَمّ يَتَساءَلُونَ، وإِذَا الشّمْسُ كُوِّرَتْ) (١). وروي عن أبي جُحيفة، قال: قالوا: يا رسول الله، نراكَ قد شِبتَ. قال: (قد شيَّبتني هودٌ وأخواتُها)(٢)، وقال القرطبيّ: «وقد قيل: إنّ الذي شيَّب النبيَّ ﷺ من سورة هود قوله: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾(٣).

فالاستقامة والثَّبات على الطَّريق، والاطِّراد على المنهج، ليست بالأمور السّهلة، ولأكونَ أكثر وضوحاً أقول: ربّما كان أمرُ الاستقامةِ قبل ثلاثين سنة تقريباً، أيسر؛ لأنَّ معظم أفراد المجتمع كانوا يسيرون في طريقها، ولم تكن الفتن قد فُتحت على الناس، كما فُتحت اليوم، فكانت المؤثراتُ محدودةً، والضُّغوط قليلة، أمَّا اليوم فقد اشتدّت معركة الحقِّ والباطل، وهي معركة عظيمة جداً، لعلّكم تتابعون تداعياتها وأحداثها، عبرَ ما يُنشر في وسائل الإعلام، معركةٌ صعبة شاقة، تحتاجُ إلى ثباتٍ واطِّراد في المنهج، فاثبت على الحقِّ، وإن تغيَّرَ

(١) رواه الترمذي: (٣٢٩٧)، وصححه الألباني في الصحيحة برقم: (٩٥٥).

(٢) الشمائل المحمدية للترمذي: ١/ ٨٥ (٤٢)، وصححه الألبانيُّ في مختصر الشمائل (٣٥).

(٣) وروى البيهقيُّ في شعب الإيمان: ٤/ ٨٣ (٢٢١٥)، قال: أَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيُّ، سَمِعْتُ أَبَا عَلِيٍّ السَّرِيَّ، يَقُولُ: رَأَيْتُ النبيَّ ﷺ، فَقُلْتُ: يا رَسُولَ الله، رُوِيَ عَنْكَ أنكَ قُلْتَ: «شَيَّبَتْنِي هُودٌ» قَالَ: «نَعَمْ» فَقُلْتُ: مَا الذِي شَيَّبَكَ مِنْهُ؛ قَصَصُ الْأَنْبِيَاءِ وَهَلَاكُ الْأُمَمِ؟ قَالَ: (لَا، وَلَكِنْ قَوْلُهُ: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾ [هود: ١١٢])»، وقال ابن رجب في جامع العلوم والحكم (ص: ٢٠٤): «وذكر القشيريُّ عن بعضهم، أنّه رأى النبيَّ صلى الله عليه و سلم في المنام، فقال له: يا رسول الله، قلت: شيَّبتني هود وأخواتها، فما شيَّبك منها؟ قال: قولُه: (فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ).

الناسُ كلُّهم لا تتغيَّر، واعلم أنَّك أنت الجماعةُ، ما دمتَ على الحقّ، بيد أنَّ معك -والحمدُ لله- خيراً كثيراً، إنها أمم ضاربة بجذورها في أعماق التاريخ: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

آثار الاطِّراد في المنهج

إنَّ للثَّبات على المنهج، والاطِّراد فيه آثاراً عظيمة، في العاجل والآجل، يصعب حصرُها واستقصاؤها، بيد أني أشيرُ بإذن الله تعالى إلى أبرزها، حسب ما يُناسب المقام، فمن آثار الاطِّراد في المنهج والثَّبات عليه، ما يلي:

١. تحقيقُ مبدأ الاقتداء:

ذلك أنَّ هذا الاطِّراد في المنهج، هو من أهمِّ خصائص دعوة الأنبياء والمرسلين، وبالتالي فإن مجاهدة النفس من أجل تحقيق الاطّراد، يُعد تحقيقاً لمبدأ الاقتداء بهدي الأنبياء والمرسلين، كما في قوله تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وفي قوله تعالى: ﴿ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾ [لقمان: ١٥]، وقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وقد ورد في السنّة المطهرة، عن عائشة ﵂، وهي تُخبر عن عمل الرَّسول ﷺ قولها: (كَانَ عَمَلُهُ دِيمَةً)[1]؛ أي مستمراً دائماً، وهذا هو الاطِّراد والثبات، فالمطَّرد في منهجه الصحيح، يكون متَّبعاً اتِّباعاً حقيقيّاً للأنبياء والمرسلين عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، وغيره متبع مرة وتارك أخرى، مقتد ساعة أو سنة، وقاعد غيرها!

(١) متفق عليه، البخاري: (١٩٨٧)، ومسلم: (٧٨٣).

٢. استحقاقُ ثناء الله تعالى:

فالدّاعية المطَّرد في منهجه داخلٌ تحت ثناء الله تعالى الذي تنصُّ عليه الآية الكريمة: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب]، ومن ثمَّ فهو يستحقُّ الوعد والجزاء الذي تضمّنته الآية الكريمة التالية: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٢٤]، وكفى بذلك فائدةً وفضلاً، فهنيئاً لمن صبروا، وصابروا، وثبتوا على الصراط المستقيم.

٣. طاعة التوجيه النبوي بالتزام السنّة المطهَرة:

الاطِّراد في المنهج يُجسّد التزام صاحبه بالتوجيه النبوي المنصوص في قوله ﷺ: (فعليكم بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، فتمسَّكوا بها، وعضُّوا عليها بالنَّواجذ، وإيَّاكم ومحدثاتِ الأمور، فإنَّ كلَّ محدثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالة)[1]، وهذا التوجيه النبويُّ بالتمسُّك بالسنّة، والعضّ عليها بالنواجذ دلّت عليه نصوص أخرى كثيرةٌ، فالالتزام به معناه الثَّبات على المنهاج، ومن ثمّ التزام هذا التوجيه النبويّ الكريم.

٤. ثقة المؤمن وتثبُّته من صحّة المنهج الذي يتبعه:

فالذين اهتدوا يزيدهم الله هدى، ويؤتيهم تقواهم، ومن سلك سبيل الهدى يسره الله لليسرى، ثم الاطِّراد في المنهج والثَّبات عليه

---

(١) رواه أبو داود في سننه: (٤٦٠٧)، ورواه الترمذي في سننه: (٢٦٧٦)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة: (٢٧٣٥).

فقام بدراسة الموضوع، وانتهى إلى القول بجواز المساهمة في هذه الشركة، فلا شكّ أنّ كثيرين سيستبشرون بهذه الفتوى، التي أباحت لهم سبيلَ المساهمة في هذه الشركة، وبالتالي فإنّ طريق الرجوع عن هذه الفتوى التي اتّضح لهذا المفتي فيما بعد خطؤها، يُصبح ضيّقاً، خاصَّةً وأنه يتوقّع أنّ الناس سيقولون له: أَبَعْدَ أنْ ورَّطْتَنا، فدفعنا بأموالنا تقولُ لنا: إنّك كنت مخطئاً؟

فكان الواجب على هذا المفتي، ألا يُصدر هذه الفتوى إلا بعد التَّثبُّت، والدِّراسة، والتَّحري، ثمّ إذا تبيّن له بعد ذلك خطؤها ألا يتردَّد في التَّراجع، وألا يستحيي من الرّجوع إلى الحقِّ، مهما كان تعلُّق الناس بفتواه، لكن هذه الشجاعة ليست متوافِرة عند كلِّ الناس، الأمرُ الذي يؤدّي فيما بعد إلى الاضطراب في منهج الإنسان. والله المستعان.

١٣. الرُجوع إلى الراسخين في العلم، والتلقّي عنهم، والإفادة منهم:

يقول اللهُ ﷻ: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [النحل]، فلا ينبغي أن يغترَّ المرء بما عنده من علمٍ، بل فليتَّهم نفسه، ولا يكن حاله كحال بعض طلاب العلم -هداهم الله- تُعرض عليه المسألة، فيستقلَّ ببحثها والنظر فيها بعيداً عن العلماء وطلاب العلم، ثم يُفتي بها، ويكتشف بعد ذلك أنه قد وقع في خطأ.

وأذكر واقعةً سمعتُها أكثرَ من مرة، يُحدثني بها أحد المشايخ، ويقول: إنّ سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز ﷺ، كان يحرص في يوم

السابع من ذي الحجة، من كلِّ عام، أي قبل انطلاق مناسك الحج، على أن يدعوَ كبار المشايخ والدُّعاة، الذين يحضرون للقيام بواجب التّوعية، والإجابة عن أسئلة الحجَّاج، وإشكالاتهم، يدعوهم إلى بيته في مكة، ليَعرضوا ما واجههم من مُشكلاتٍ، وفتاوى في الحج، يحكي لي أحدُ هؤلاء المشايخ، الذين حضروا بعض هذه اللقاءات، أنّه كان جالساً في مكانه قريباً من الشيخ عبد العزيز بن باز، وأتى أحد كبار العلماء المعروفين، فسأل الشيخ ابن باز عن مسألةٍ من مسائل الحجِّ. يقول هذا الشَّيخ الذي يروي هذه الحادثة أنه تعجّب من كون هذا الشيخ الفاضل، يطرح تلك المسألة بين يدي الشيخ ابن باز، وأمام الحاضرين، ويقول: لو عُرضت عليَّ هذه المسألة قبل اجتماعي مع هؤلاء الشيوخ، لأفتيتُ فيها بلا تردُّد، يقول: فتعجبت لـمّا رأيتُ الشيخ ابن باز نفسه لـمّا سمع المسألة، يطلب إعادة السؤال، ثمّ يقول: إنّها مسألةٌ تحتاج إلى بحث!

وسببُ استسهال هذا الشيخ الفاضل، لهذه المسألة، هو قلةُ علمه، مقارنةً بعلم أولئك الشيوخ، فلم يكتشف وجود بعض الزوايا الخفيّة في المسألة، التي أبصرها الشيخ السائل، وانتبه لها الشيخ الإمام عبد العزيز ابن باز ﷺ، فتوقَّفا في الجواب!

فلذلك قد يأتي سائلٌ مستفتٍ لأحد المشايخ في قضية طلاق، فيُفتيه بأنَّ امرأته قد طلقت، ثم يذهب هذا السائلُ المستفتي للشيخ ابن باز، فيرى ﷺ أنّ زوجة هذا الرَّجل لا تزال في عصمته! فالشيخ عبدالعزيز

ﷺ، أدرك لقوة فهمه، ورسوخه في العلم، ما لم يُدركه الآخر، من الزوايا الخفيّة!

فرجوعُك إلى رفاقك من طلاب العلم، تستشيرهم، وتُقوّي نظرك بأنظارهم، وكذا رجوعك إلى العلماء؛ مما يجعل الفتوى رصينةً وقويةً، لأنك عندها تكون قد استفرغتَ وُسعك في الأمر؛ فلن يُضيرَك ما قد يترتّبُ عليه من أمورٍ لم يكن في استطاعتك إدراكُها، وعندما تتبيّن لك بعض الجوانب الخفيّة في مسألةٍ من المسائل، كنت قد أفتيتَ فيها بعد أن استفرغتَ وُسعك، وراجعتَ بعضَ طلاب العلم والعلماء، فستجد في نفسك قوّةً للرّجوع إلى الحقِّ، لأنه هو ضالّتك التي كنت تبحث عنها منذ البدء، وعندئذٍ تجد نفسك بعيداً من الاضطراب، وركوب مركب الهوى.

١٤. التدارس، والتشاور، والتعاون مع أصحاب الاختصاص والشأن، من المعروفين بسلامة المنهج:

هذا ما ينبغي القيام به، قبل الإقدام على أي أمرٍ من الأمور، والله ﷻ يقول: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]، ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. وقد ورد في ذلك قصة عمر - رضي الله عنه -، لـمّا أراد أن يدخل الشام في عام الطاعون، وهي قصّة فيها دروس عجيبة جداً، فعمر ﷺ، بمنزلته ومكانته المعلومة، عمر الذي وافَق القرآنَ، ووافقه القرآنُ في مواضعَ عديدةٍ، وعمر الذي قال فيه

النبي ﷺ: (إنَّه قد كان فيما مضى قبلكم من الأمم مُحدَّثون، وإنه إن كان في أمَّتي هذه منهم؛ فإنه عمر بن الخطاب) (١) ومع كلِّ ذلك يلجأ فيها إلى الاستشارة في مسألة الطاعون، على نحو ما روي:

(عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ، خَرَجَ إِلَى الشام، حَتَّى إِذَا كَانَ بِسَرْغَ، لَقِيَهُ أَهْلُ الْأَجْنَادِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ، وَأَصْحَابُهُ، فَأَخْبَرُوهُ أَنَّ الْوَبَاءَ قَدْ وَقَعَ بِالشَّام، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ:

فَقَالَ عُمَرُ: أُدْعُ لِي المهَاجِرِينَ الأَوَّلِينَ. فَدَعَوْتُهُمْ، فَاسْتَشَارَهُمْ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ الْوَبَاءَ قَدْ وَقَعَ بِالشَّام، فَاخْتَلَفُوا، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: قَدْ خَرَجْتَ لِأَمْرٍ وَلَا نَرَى أَنْ تَرْجِعَ عَنْهُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَعَكَ بَقِيَّةُ النَّاس وَأَصْحَابُ رَسُولِ الله ﷺ، وَلَا نَرَى أَنْ تُقْدِمَهُمْ عَلَى هَذَا الْوَبَاءِ. فَقَالَ: ارْتَفِعُوا عَنِّي، ثُمَّ قَالَ: ادْعُ لِي الْأَنْصَارِ. فَدَعَوْتُهُمْ لَهُ، فَاسْتَشَارَهُمْ، فَسَلَكُوا سَبِيلَ الْمُهَاجِرِينَ، وَاخْتَلَفُوا كَاخْتِلَافِهِمْ. فَقَالَ: ارْتَفِعُوا عَنِّي، ثُمَّ قَالَ: ادْعُ لِي مَنْ كَانَ هَاهُنَا مِنْ مَشْيَخَةِ قُرَيْشٍ، مِنْ مُهَاجِرَةِ الْفَتْحِ. فَدَعَوْتُهُمْ فَلَمْ يَخْتَلِفْ عَلَيْهِ رَجُلَانِ، فَقَالُوا: نَرَى أَنْ تَرْجِعَ بِالنَّاس، وَلَا تُقْدِمَهُمْ عَلَى هَذَا الْوَبَاءِ.

فَنَادَى عُمَرُ فِي النَّاس: إِنِّي مُصْبِحٌ عَلَى ظَهْرٍ، فَأَصْبِحُوا عَلَيْه. فَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ: أَفِرَارًا مِنْ قَدَرِ الله؟

فَقَالَ عُمَرُ: لَوْ غَيْرُكَ قَالَهَا يَا أَبَا عُبَيْدَةَ! -وَكَانَ عُمَرُ يَكْرَهُ خِلَافَهُ- نَعَمْ، نَفِرُّ مِنْ قَدَرِ الله إِلَى قَدَرِ الله، أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَتْ لَكَ إِبِلٌ فَهَبَطَتْ

---

(١) متفق عليه، البخاري: (٣٤٦٩)، ومسلم: (٢٣٩٨).

وَادِيًا لَهُ عُدْوَتَانِ، إِحْدَاهُمَا خَصْبَةٌ وَالْأُخْرَى جَدْبَةٌ: أَلَيْسَ إِنْ رَعَيْتَ الْخَصْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ الله، وَإِنْ رَعَيْتَ الْجَدْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ الله؟

قَالَ: فَجَاءَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ، وَكَانَ مُتَغَيِّبًا فِي بَعْضِ حَاجَتِهِ، فَقَالَ: إِنَّ عِنْدِي مِنْ هَذَا عِلْمًا، سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**إِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ، فَلَا تَقْدُمُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا، فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ**» قَالَ: فَحَمِدَ اللهَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، ثُمَّ انْصَرَفَ)[1].

فعمر رضي الله عنه، لـمّا أبلغه أبو عبيدة بوجود وباء الطاعون في الشام، جمع خيار الصحابة رضي الله عنهم، ابتداءً بالمهاجرين الأولين، ثم بالأنصار، فلمّا رآهم قد اختلفوا؛ دعا بمُسلمي الفتح، مشايخ قريش، وهم في الفضل بعد المهاجرين والأنصار، وكلّهم أهل فضلٍ، وليس عندهم مثلَ ما عند المهاجرين والأنصار من العلم؛ لأنهم مِن آخِر من أسلم، لكن حنكَتْهم تجاربُ الحياة وعركَتْهم، فلم يختلف رأيُهم في هذا الأمر، اتّفقوا على عدم دخول الشام، فأخذ عمر برأيهم، ولم يأخذ برأي الحاضرين من الأنصار والمهاجرين؛ لأنهم اختلفوا، ولم يكن عند أحدٍ منهم علمٌ من رسول الله ﷺ، بما ينبغي فعلُه في هذه الحال، حتّى جاء عبدُ الرحمن بن عوف، وذكر أنّ عنده في هذه المسألة علماً من رسول الله ﷺ، أكّد به صحَّة ما توصَّل إليه عمر رضي الله عنه، بطريق المدارسة والمشاورة. فالمدارسة والمشاورة، سببٌ مهمّ من أسباب التوفيق للصواب، وكذلك الاطِّراد والثَّبات على المنهاج.

---

(١) رواه البخاري: (٥٧٣٠)، رواه مسلم: (٢٢١٩).

١٥. الإفادة من سير السابقين، ودراسة أسباب الاطِّراد والثبات عند الأئمة والمجددين:

إنّ الفتن والمحن، قد تُزلزلُ القلوب، فتُفقدُها القدرة على حسن التصرّف، كما قال الله ﷻ في شأن أمِّ موسى بعد أن ألقت به في اليمِّ: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا ﴾ [القصص: ١٠]، وهو ما أصاب الصحابة ﭫ، بمن فيهم عمر بن الخطاب ﭬ، يوم وفاة الرسول ﷺ، أمّا أبو بكرٍ ﭬ، فقد قدّم أنموذجاً فريداً في قوّة الإيمان والثّبات، روت عائشةُ ﭭ زوج النبي ﷺ: (أنَّ رسول الله ﷺ مات، وأبو بكر بالسنح) أي: بالعالية، تقول: (فقام عمر يقول: والله ما مات رسولُ الله ﷺ! قالت: وقال عمر: والله ما كان يقعُ في نفسي إلا ذاك، ولَيبعثنَّهُ الله فليقطعنَّ أيدي رجال وأرجلهم! فجاء أبو بكر؛ فكشف عن رسول الله ﷺ؛ فقبَّله! قال: بأبي أنت وأمِّي، طبتَ حيَّاً وميِّتاً، والذي نفسي بيده، لا يُذيقُك الله الموتتين أبداً، ثم خرج؛ فقال: أيُّها الحالفُ على رسلك! فلما تكلَّم أبو بكر، جلس عمرُ، فحمد اللهَ أبو بكر وأثنى عليه، وقال: ألا من كان يعبد محمداً ﷺ فإنَّ محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإنَّ الله حيٌّ لا يموت! وقال: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الزمر]، وقال: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [آل عمران])[1].

---

(١) رواه البخاري: (٣٦٦٧).

يدلُّ على أنّ صاحبه مطمئنٌّ إلى المنهج الذي يتّبعه، وواثقٌ من الطريق الذي يسلكه، وأنَّ منهجه مبنيٌّ على أصولٍ، ومنطلقاتٍ ثابتة، فلذا لا تهزُّه الرياح، ولا يتنازل أمام المغريات والفتن.

وهذه مسألة عظيمة جداً، فثبات المرء على منهجه ودينه، دليلٌ على قناعته بهذا المنهاج، كما حدث للإمام أحمد ﷺ عندما ثبت على القول بأنَّ القرآن كلامُ الله، وأنه ليس بمخلوق[1]، وذلك يتجلّى كذلك في قصة شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ، لما ناقشه عدد من العلماء في حضرة السلطان، فأدلى بدلوه، ثمّ قال: «قد أمهلتُ من خالفني من هؤلاء العلماء ثلاثَ سنين، فإن جاء أيٌّ واحدٍ منهم، بحرفٍ واحدٍ، عن القرون الثلاثة، يُخالف ما ذكرتُ؛ فأنا راجعٌ عن ذلك» ثم قال: «وعليَّ أن آتيَ بنقول جميع الطوائف في القرون الثلاثة، يوافق ما ذكرتُه»[2]. وقال في مكان آخر: «من جاء بحرفٍ واحدٍ عن السَّلف، بخلاف ما ذكرتُ، فأنا أصيرُ إليه»[3]. ففي هذه العبارات، تعبيرٌ عن ثقةٍ كبيرةٍ بالمنهاج الذي سلكه، ولا شك أنّ الثقة بالمنهاج من أسباب الاطِّراد فيه، والثَّبات عليه.

(١) سيرة الإمام أحمد:[١/ ٤٩-٥٢].

(٢) مجموع الفتاوى: [٣/ ١٦٩].

(٣) المصدر السابق: [٣/ ٢٠٦].

٥. وضوحُ معالم المنهاج، وحُسن تقبُّله، والالتزام به، ونشره، والدعوة إليه:

إن وضوح شخصيّة المؤمن الثابت على الحقِّ ينعكس على منهاجه، فيكونُ واضحَ المعالم بيِّن السّماتِ، لا التواءات فيه ولا منعرجات! وهذا يؤدِّي إلى قبوله، وسهولة الالتزام به، ونشره، والدعوة إليه، بل وعالميَّته المستمدَّة من عالمية هذا الدِّين.

لننظر مرة أخرى إلى موقف الإمام أحمد، عندما ثبت على عقيدته، واطَّرد في منهاجه؛ أصبح موقفُه من أعظم المواقف في التَّاريخ، بعد مواقف الأنبياء، وصحابة رسول الله ﷺ، فكذلك الداعية يحتاج إلى أن يُعرف عنه منهجٌ واضح، بريءٌ من الغموض والضبابيّة.

إنّ الاطِّراد في المنهاج الحقِّ ينعكس على موقفك، فيغدو واضح المعالم، سهل القَبول، بخلاف من كان كلَّ يوم في واد، تميل به الريح حيث مالت، ولا شكّ أنّ الثَّبات على المنهج، والاطِّراد فيه ليس أمراً يسيراً، بحيث يصبر عليه كلُّ أحد، فلا بدّ من أن يلقَى المرء عنتاً في أول الأمر، ومشقّةً، وصعوبةً، ألم يقل الله تعالى لخير رسله ﷺ: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾[الإسراء].

وليثق المجاهد من أجل الثَّبات، أنه لا ريبَ محقّق - بإذن الله-

أهدافَ دعوته، طال الزمان أو قصُر، ما دام مستمسكاً بالعروة الوثقى، ثابتاً على المنهاج الحق، وقد عانى سيّد الدُّعاة محمَّد رسولُ الله ﷺ في سنوات دعوته الأولى، قبل أن يأذن الله له بالنصر، ودخول الناس في دين الله أفواجاً، لما ثبت على دينه ومبدئه ﷺ، وهذا وعد الله: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [العنكبوت].

٦. القدرة على تخطَي الصُعوبات. وحلُ المشكلات الطارئة :

ليطّردَ المنهاج، ينبغي أن يكون مبنيّاً على أصول وقواعد، وكليات معتبرة، وهذه بدورها تُعطي المنهاج قدرةً على تخطي الصُّعوبات، وإيجاد الحلول لكل مشكلةٍ طارئة، والتَّعامل الفذّ مع المستجدَّات، وإعادة بناء الفروع على الأصول مع حسن الانتظام فيها، فالداعية لا بد أن يواجه عقباتٍ، يقول الله تعالى: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [العنكبوت]، وقد مرَّ بنا قولُ أحد الدُّعاة الذين ابتُلوا؛ فصبروا، وثبتوا، نحسبهم كذلك، والله حسيبهم، أنه قال ما معناه: «لولا هذه العقبات، والمشكلات؛ لشككنا في طريقنا»، وهو مأثور كذلك عن بعض السلف، ولـمّا رَغِب بعض الحادبين من الإمام أحمد- وهو في خِضَمِّ محنته - أن يتراجع؛ فيتأوّل مثلما تأوّل الكثيرون؛ قال لهم: انظروا الذين عند الباب، فلمّا خرجوا، وجدوا الناس معهم أقلامُهم، يترقّبون ما سيتفوّه به الإمام أحمد ليكتبوه، فعندئذٍ تراجع هؤلاء الحادبون عن رغبتهم، ولمسوا مقدار الخسارة التي كان سيُمنى بها الإمامُ أحمد، ومقدار الخلل الذي كان سيتطرَّق لعقيدة الناس،

فوضوح المنهاج لدى الإمام أحمد، قد آتاه بفضل الله ﷻ القدرةَ على تخطّي المحنة، والابتلاء، والاستعلاء عليها. وهكذا يكون حال كلّ داعيةٍ، استبانت في وعيه وإدراكه، وفي قلبه وشعوره، معالمُ المنهاج الصحيح، فإن ذلك يُيسّر اجتياز العقبات والابتلاءات.

ولقد رأيتُ نوعين من الدعاة، أو طلاب العلم، واجهوا مشكلةً واحدة، فبعضُهم استكان أمامها وضعُف وذلَّ، وبعضهم ردَّها، وتجاوزها بكلِّ يُسرٍ، بسبب ثبات منهاجه ووضوحه، واستناده على قواعد، وأصول مطَّردة، فلا تجده يجادل أبداً، أو يساوم في قناعاته، خلافاً للأول الذي انحنى للعاصفة، وطفق بعدها يسوِّغ موقفه، والواحد من هؤلاء، قد يكون معذوراً، وعنده تأويل سائغ، ولكن يبقى أن البون بين هؤلاء وهؤلاء شاسع، فالفارق بيِّنٌ بَيْن الإمام أحمد ﷺ إمام أهل السنة، وبين الذين قبلوا التأوُّل، وهم معذورون فيما بينهم وبين الله ﷻ، ولا يُثرَّب عليهم، ولكن أين هم من الإمام أحمد؟

فالتزامك بمنهجٍ مطّردٍ ثابت، مبنيٍّ على أصول وقواعد شرعيّة راسخة، يُيسّر لك أمر تجاوز العقبات التي تعترضك في طريقك القاصد إلى الله ﷻ، ذلك لأنك عندئذٍ تكون قد ربطتَ حياتك بالدَّار الآخرة، فما تبالي بما فات عليك من نعيم الدنيا، ولا تكترث بما نزل عليك من بلائها ولأوائها وشدّتها، كيف وقد تعلّق قلبك بالدار الآخرة، التي هي الحَيَوان لو كانوا يعلمون؟ فعندئذٍ يكون مثالُ المرء في حال كونه يبذل جهده في سيره القاصد، نحو رضوان الله في الآخرة، مثالَ رجلٍ

يُلاحقه العدوّ، فهو يعدو يُريد النجاة بنفسه، فماذا فعل؟

ألقى الصحيفةَ كي يُخَفِّفَ رحلَهُ

والزادَ حتى نعلَهُ ألقاها

إنّه في سبيل التخفُّف من الأمور التي قد تُعرقل مسيرته القاصدة، ألقى صحيفةً كانت معه، يريد أن ينجو بنفسه، ثمّ شعر بأنَّ زاده يُثقله فتخلَّص منه، ثمّ شعر بنعله يعوقه عن الانطلاق فرماها!

فالذي يبني لنفسه منهجاً مطّرداً، لا يُبالي في سبيله أن يتخلَّى عن كلِّ شيء، حتى ينجو بدينه، لذا فلا عقبةَ تعوق طريقه نحو ربه ﷻ.

٧. تحقيقُ الانتصار في الحياة، أو بعد الممات:

وهذا الأثرُ من آثار الاطِّراد في المنهج، أمرٌ مشاهدٌ محسوس في الماضي والحاضر، بل إن بعضَ أصحاب الدعوات الكافرة، أو المناهج المنحرفة، قد نجحوا في تحقيق أهداف دعوتهم وانتصروا؛ بسبب ثباتهم على مبادئهم.

فالخوارج بسبب ثباتهم على منهجهم الباطل، ظلّت دعوتهم قائمةً إلى اليوم، والمعتزلة كذلك بسبب هذا الصَّبر والثَّبات على منهاجهم، صار لهم بعد مرور ما يُقارب ألف سنة، وجودٌ وامتداد في عصرنا، يتمثّل فيمن يُسمَّون بأصحاب المدرسة العقلية، الذين هم في الحقيقة أتباع للمعتزلة، لم يأتوا بجديدٍ قط، فلا تنخدعوا بهم، ولا تغترُّوا بدعواتهم، إنّما ينسجون على منوال أسلافهم الذين فلَّ حججَهم علماءُ الإسلام.

وإذا كان الثبات شأن بعض أصحاب المذاهب الباطلة، فكيف بأتباع محمد ﷺ؟ لا ريب أنّهم هم الجديرون به، لأن لديهم من العوامل المعينة على الثَّبات، ما ليس لدى الآخرين، ومن ذلك أنهم يرجون من الله ما لا يرجوه أولئك المنحرفون: ﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾ [النساء].

ثم إن دعاة الحقِّ، في كلِّ مكانٍ وزمان.. قد يُكتب للداعية المجاهد منهم، أن يرى ثمرة عمله انتصاراً مظفّراً على أعدائه، كما حدث لأصحاب طالوت، لما ثبتوا فهزموا أصحاب جالوت- بإذن الله- ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾ [البقرة: ٢٥١]. وقد يُكتب للداعية أن لا تبدوَ ثمرةُ جهاده إلا بعد وفاته، كما هو حالُ شيخ الإسلام ابن تيمية، الذي لقي ربه، وهو في غَيابَة السجن بالقلعة، فلم يتحقَّق له الانتصار إلا بعد وفاته، فانظروا الآن إلى كتبه ﷺ، كيف صارت من أعظم ما يُقتنى، بل لا يكاد باحثٌ أو عالمٌ معاصر، يضع كتاباً في أيّ باب من أبواب العلم الشرعيّ، إلا وهو بحاجةٍ إلى تحقيقات شيخ الإسلام ابن تيمية وتدقيقاته في مختلف أبواب العلم، فبعد ما يقارب سبعة قرون من موته؛ حبيساً في سجن القلعة ﷺ، يتحقّق لكتبه هذا الانتشار الكبير، بسبب ثباته على دينه ومنهجه حتى آخر لحظة، والسبب ثباته فلم تلن له قناةٌ، على الرغم من أنه قد ذاق مرارة السِّجن مراتٍ عديدة، فما تنازل، ولا تضعضع بسبب وضوح منهاج أهل السنة عنده ﷺ، فلذا تحقّق له هذا الانتصار الكبير، فصارت كتبه صدقةً جاريةً، وعلماً قد انتفع -ولا يزال ينتفع بها- خلقٌ كثير إلى ما شاء الله.

٨. الاجتماع، ووحدة الكلمة على منهاج الحقّ:

هذه أبرز آثارِ الاطِّراد في المنهج، يقول الله تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾ [آل عمران: ١٠٣]. ويقول ﷻ: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. فالثَّبات على المنهج يجمع الكلمة، ويوحِّد الصُّفوف، ويُزيل إيغار الصُّدور، إذ تكون النُّفوس معلّقةً بالأهداف الكبيرة التي يقتضيها المنهاج، وبالمقابل فإنه عند وجود الاضطراب في المنهج، تحدث الفُرقة والحزبيّة، ذلك أن النفوس تكون فارغةً من الاهتمامات الكبيرة، والواقعُ الذي نعيشه في عصرنا الراهن، خيرُ دليلٍ وشاهد لما نقول. نسأل الله السلامة.

٩. تحقيق الوحدة الفكريّة والمعنوية بين الشيخ وأتباعه من طلاب العلم وغيرهم:

وذلك من الآثار المهمَّة للاطِّراد في المنهج، وهو يجيء مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [يوسف]. فكلّما كان منهاج العالم، أو الداعية مطردَ الأصول والمنطلقات؛ كان مُيسّراً على الأتباع، سهلاً أن يعرفوا حقيقة موقف هذا العالم، أو الداعية، من مختلف القضايا، والمتغيرات، والمستجدات التي تمرّ بالدعوة، ومن ثم تتحقّق الاستجابة المناسبة، إزاء مختلف التحديات التي تواجه الدعوة، ويتسنّى تحقيق المقاصد والغايات التي يريدها الدعاة، ويتحقق الانسجام بين الشيخ وتلاميذه. وأكبر دليلٍ على ذلك، ما حدث بعد انتقال رسول

الله ﷺ إلى ربه ﷻ، حين تعرّضت الدولة الإسلامية لهزّة شديدة، بسبب ارتداد كثيرٍ من قبائل العرب، فقيّض الله ﷻ للأمة أبا بكرٍ، فأعلن موقفه الواضح: «وَالله لَأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ، فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ المالِ، وَالله لَوْ مَنَعُونِي عَناقًا كَانُوا يُؤَدُّونَها إِلَى رَسُولِ الله ﷺ لَقَاتَلْتُهُمْ»[1]. وعمر ﷺ كان يُخالف أبا بكرٍ في هذا الموقف، لكنه لـمّا رأى ثباته على موقفه تراجع ﷺ، قائلاً: (فَوَالله، مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتُ اللهَ ﷻ قَدْ شَرَحَ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ لِلْقِتَالِ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَقُّ)[2].

لقد كان الابتلاء بردّة القبائل تحدّياً كبيراً، طرأ قبل أن يزول وقعُ المصيبة الكبرى بوفاة رسول الله ﷺ، إلى حدّ أنّ عمرَ ﷺ، الملهم المؤيّد بالقرآن، لم يستبِن له وجه الحقّ لأول وهلة، لكنه سرعان ما رجع بعد تنبيه يسير أملاه ثبات أبي بكرٍ ﷺ أكثر من مقاله.

وثبات القائد، أو العالم، أو الداعية، واطِّراد منهجه، يؤدّي إلى استقرار نظام الجماعة، خاصةً في الأوقات العصيبة، بناءً على ثقة أفرادها في قائدهم، وكان من الممكن أن يواجَه أبو بكر بالمعارضة، لولا فضل الصحابة من جهة، إذ كانوا يتذكَّرون إذا ذكِّروا، ومن جهة أخرى فإن عمر وسائرَ أصحاب رسول الله ﷺ، يعرفون من هو أبو بكر الصديق ﷺ، ويعرفون ثبات منهجه واطِّراده، ويعرفون أنه أفضلُ هذه الأُمَّة بعد رسولها ﷺ.

---

(١) متفق عليه، صحيح البخاري: (١٤٠٠)، وصحيح مسلم: (٢٠).

(٢) المرجعان السابقان.

فالعالم الداعية له أتباع ومريدون، يتّبعونه على طريق الحقّ؛ فإن لم يكن المنهج ثابتاً مطَّرداً، والرؤية واضحةً لدى هذا العالم، أو الداعية، فإن الأتباع سيشعرون بالتشتُّت والاضطراب، خاصةً في المنعطفات الكبيرة، عند نزول بعض البلايا بالجماعة أو بالأُمَّة.

١٠. امتداد الأثر الإيجابيّ للعالم ودعوته عبر المكان والزمان:

ذلك أن العالم إذا كان مطَّرِد المنهج، واضحَ الرؤية، فإن الأثر الإيجابيّ لدعوته المؤسَّسة على الثوابت الشرعية والقطعيّة، سيمتدُّ ليشمل قطاعاً عريضاً من المجتمع، فيتربّى جيلٌ كامل على هذا المنهج المطَّرد، بل إن من شأن مثل هذه الدعوة أن يتناقلها الناسُ جيلاً بعد جيل، نعم قد لا يحصل هذا، لكنه عادة ما يكون!

والمثال النموذجي الأساسيّ على هذا الأثر الإيجابيّ لاطِّراد المنهج، هو الداعيةُ الأول محمد ﷺ؛ فعلام تَرَكَنا رسول الله ﷺ، عشيّة انتقاله إلى الرفيق الأعلى؟ يقول ﷺ: (**تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك**)[1]، وهذا الأثر الإيجابيُّ لدعوة رسول الله ﷺ، -بمنهاجها الربَّاني المطَّرد- يمتدُّ إلى اليوم، بل إلى قيام الساعة، وهذه واحدة من أبرز آثار ميزة الاطِّراد في المنهج.

ومن الأدلة الدالّة على هذا الأثر كذلك: الأئمَّة الأربعة، الذين امتدّ

(١) سبق تخريج الحديث ص ٤٧.

عطاؤهم الفقهيُّ والمنهاجيّ طيلة القرن الثاني الهجريِّ، بعضهم ولد في القرن الأول الهجريِّ كأبي حنيفة ومالك ﷺ تعالى، وبعضُهم وُلد في القرن الثاني الهجريّ كالشافعيِّ ﷺ، وفي وسطه تقريباً كان الإمام أحمد ﷺ، والشاهد من هذا السياق أن منهجهم الواضح المؤصَّل، المبنيّ على قواعد منهجيّة مطَّردة، هي قواعد أهل السنَّة والجماعة، قد أتاح لهم أن يتربّعوا على عرش إمامة الفقه، منذ ذلك التاريخ وإلى اليوم، وإلى ما بعد اليوم؛ وذلك لاطِّراد مناهجهم، فهم من أهل السنَّة، بل من أئمّة السنَّة، ولذا فإن مناهجهم ميسّرةٌ وسهلة التعلم، مع ما فيها من تفريعاتٍ وفصول قد لا تكون جاءت عن الإمام، لكنها جاريةٌ على أصوله.

وهكذا حال الداعية، إذا كانت دعوته واضحة مطردة، ثابتة لا يزيغ عنها، حتى يلقى الله ﷻ، فإنه بذلك يُيسِّر على مَن بعده أمر معرفةِ هذه الدعوة، والتماسِ ما فيها من خير.

١١. العصمة من الخلل، والانحراف، والتشتت، والتبديل، والتغيير:

وهذا أثرٌ من الآثار البارزة لاطِّراد المنهج، وندلّل عليه بالنظر في الجهة المقابلة، إلى المنافقين لما لم يطَّردوا في المنهج، ماذا قال الله فيهم؟ قال: ﴿ مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ [النساء: ١٤٣]. ويقول الرسول ﷺ: (**مثلُ المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين**

تَعير إلى هذا مرة، وإلى هذا مرة)[(١)] والشاة العائرة: المتردِّدة الحائرة، لا تدري لأيِّهما تتبعُ، ومعنى تعير: أي تتردَّد وتذهب.

فمن آثار الاطِّراد وثمراته الكبرى: الثَّبات على الدِّين، فمن يضع لنفسه معالم واضحةً، ويثبت عليها، فإنها ستكون - بإذن الله - سبباً في الاطِّراد، والبعد عن الانحراف. ومثال لذلك: عالم من العلماء، يجتهد في الإنكار على بعض المنكرات الكبيرة، ويُكثر الحديث عنها، فوقوعه هو نفسُه فيها مستبعد؛ لأنه أصبح علماً في هذا الشأن، إذن، الاطِّراد على منهج واحدٍ، سيكون - بإذن الله - عاصماً من الوقوع في الزَّلل والخلل، وما أشدّ حاجتنا اليومَ إلى مثل ذلك!

١٢. تكامل الشخصية، وقوة العقل، وبعد النظر، والأهليّة للقيادة:

وهـذه من الآثـار البـارزة لاطِّـراد المنهج، يقول الله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [السجدة]. ولذلك أثنى اللهُ ﷻ على الأنبياء: إبراهيم، وموسى، ويوسف، وعلى غيرهم، وعلى نبيِّنا عليه وعليهم جميعاً أفضل الصَّلاة والسَّلام.

فالثَّبات على المنهاج دليلٌ على كمال شخصيَّة صاحبه، ومُنبئ عن قوَّة عقله وسعة علمه، إذ تسنّى له أن يُديم النَّظر في نصوص الشريعة، حتى أدرك قواعدها وأصولها الكلّيّة، فثبت عليها، وتكامل وعيُه، ونضجت شخصيّته، واستقرت طباعه، ولم يعد للهوى والمزاج مدخلٌ

---

(١) رواه مسلم: (٢٧٨٤).

إليه، فعصم نفسه من أن يكون مثلَ بعض الناس من ذوي الطابع المزاجي، لا في الأكل والشرب فقط، بل حتى في المواقف المبدئيّة، ممّن تجده اليوم على موقف، وغداً على موقف مضادّ.

فاطِّراد المنهاج واستقراره، دليلٌ على استقرار الطِّباع، وعلى كمال العقل، وبعد النظر، الأمر الذي يؤهل صاحبه لأن يكون من المؤهلين لقيادة الأُمَّـة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ متى؟ ﴿ لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [السجدة]. وقد سأل رجلٌ الإمام الشافعي ﷺ فقال: يا أبا عبد الله، أيُّهما أفضل للرجل: أن يُمكَّن أو أن يُبتلى؟ فقال الشافعيُّ: لا يُمكَّن حتى يُبتلى، فإن الله ابتلى نوحاً، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمداً صلوات الله وسلامه عليهم، فلما صبروا مكَّن لهم، فلا يظنُّ أحد أنه يخلص من الألم البتة، فقرأ: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [السجدة]، والنبي ﷺ يقول: (كمُل من الرجال كثيرٌ)[1]، نسأل الله أن نكون وإيَّاكُم منهم.

١٣ـ التوفيق، والهداية، وحسن الخاتمة:

وهذا الأثرُ الطَّيب، هو من أبرز آثار اطِّراد المنهج، أعني أن يوفق صاحبه إلى ثبات بعد ثبات، وطاعة إثر طاعة، وخير بعد خير، وهكذا إلى أن يلقى الله ﷻ، ومن أقوى الشواهد عليه: قصةُ يوسف ﷺ، الذي تعرض في مختلف مراحل حياته، إلى ابتلاءٍ متعدّد الأنواع،

(١) رواه البخاري: (٣٤١١)، ورواه مسلم: (٢٤٣١).

ابتداءً من إلقائه في البئر من قبل إخوته، مروراً بقصته مع امرأة العزيز والنِّسوة، انتهاءً بحبسه في غيابة السِّجن، فصبر على هذا كله حتى بدأ بعدها التَّمكين، فكان كذلك بلاء فوُفِّق فيه وهُدي وثُبِّت، ومن أسباب ذلك اطراد منهاجه، في كل محنة، واتباعه ما كان عليه رسل الله قبله: ﴿ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ [يوسف: ٣٨] ﷺ، فماذا كانت النتيجة؟ انتظامه في سلك أولئك الآباء، بتمام النعمة عليه مثلهم: ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ ﴾ [يوسف]، وبقي حتى آخر حياته يرعى ذلك، ويسأل ربه أن يحسن ختامه ويُميتَه على الإسلام، ويلحقه بأولئك الأسلاف: ﴿ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [يوسف]. فكتب الله له ذلك، توفّاه مسلماً، وألحقه بالصالحين، ولذلك رآه النبي ﷺ عندما عُرج به إلى السماء، ورآه وقد أُعطي شطرَ الحسن(١).

وكثير من العلماء والدعاة الذين ثبتوا وأخلصوا دينهم لله تعالى، قد شُهد لكثيرٍ منهم بحسن الخاتمة في سياق وفاتهم، ورُئيت لبعضهم رؤى بعد وفاتهم، تُبشر بخاتمتهم السعيدة -بإذن الله تعالى- فمن أعظم أسباب حسن الخاتمة: الثَّبات على المنهاج، والاطِّراد فيه، نسأل الله العليَّ الجليل أن يُحسن ختامنا وختامكم.

(١) رواه البخاري: (٣٢٠٧)، رواه مسلم: (١٦٢).

أسباب الاضطراب في المنهج

بدءاً، يجب أن نفرق بين الاضطراب في المنهج، وبين الاجتهاد فيما يسوغ فيه الاجتهادُ، إما بتغيير الفتوى لمراعاة ظروف الزمان والمكان، أو حتى تغيرها لاستبانة حق لم يكن قد بان، وعلم بسنة كانت خافية، فالمشهور عن الإمام الشافعيّ ﷺ، أنه قد أحدث تجديداً في مذهبه، لما انتقل من العراق إلى مصر، ومن أسبابه مناظراته بعض أهل الحديث من أصحاب مالك، فاستبان له ما كان خافياً، كما أننا نجد للأئمة وكبار العلماء في المسألة الواحدة أكثرَ من قول، حتى إن الإمام أحمد ﷺ قد يكون له في المسألة الواحدة أربعُ روايات، بل أكثرُ من ذلك، كما ذكر القاضي أبو يعلى وغيره.

كذلك ينبغي أن نعلم: أنه ليس من الاضطراب في المنهج، التجديدُ في وسائل الدعوة، والأخذُ بالوسائل المستجدَّة، فيما لا يتعارض مع نصٍّ شرعيٍّ، أو قاعدةٍ كلية، أو مسألةٍ مجمعٍ عليها.

ولا ريبَ أن الذين يرون أن الوسائل توقيفيةٌ مخطئون، ومقتضى قولهم: أن نكُفَّ عن استخدام الإنترنت في عملية الدعوة، وألا نستخدم السيارة، ومكبرات الصوت، وما إلى ذلك من الوسائل الحديثة، التي سخّر الله سبحانه بعض خلقه لابتكارها واختراعها، وإن موهوا بمحاولات تفريق غير مستقيمة. فالصحيح أن وسائل الدعوة من المصالح المرسلة، لها ضوابطها الشرعيّة، التي تبين حقيقة موقف الشرع منها.

فمن آثار هذا الخلط الذي نراه بين الوسائل والمنهاج، أن يُرمَى أحدٌ باضطراب منهاجه، وعدمِ ثباته وتغيّره، ويكون الواقع أنه إنما تغيرت عنده الوسائل، بيد أنه مستعصمٌ بمنهاج أهل السنَّة، فلا يحيد عن قواعده الكلية، وأصوله ومنطلقاته، فليُنتبه لذلك!

وبعد هذه المقدّمات، نقول: إن الحاجة لتحديد أسباب الاضطراب ماسّةٌ، وذلك حتى لا نقع فيها؛ لأن وقوع الاضطراب بعد أن لم يكن، يحصل عادة لوقوع سبب من هذه الأسباب، ولذا فإن معرفتها تساعدنا بإذن الله على اجتناب الوقوع فيها.

وكما أنّنا وقد تعرّفنا فيما سبق على أسباب اطِّراد المنهج؛ لنلزمها، فمن المهمِّ أن نتعرّف كذلك على أسباب الاضطراب لنتقيها، وقد كان الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان ﷺ يسأل النبي ﷺ عن الشر مخافة أن يقع فيه، كما في الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: (كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر، مخافة أن يدركني)[1].

وقبل البدء برصد هذه الأسباب، أُنبّه إلى أن بعض أسباب (الاضطراب)، تحدث بسبب مخالفة أسباب (الاطِّراد)، فمثلاً إذا قلنا: إن من أسباب الاطِّراد: الإخلاص، فمن أسباب الاضطراب: عدم الإخلاص، وعندئذٍ فمن البدهي أن يعاد معنى بعض ما ذكرناه عند الحديث عن أسباب الاضطراب، ولعله يورد على نحوٍ من الاختصار،

(١) أخرجه البخاري (٣٦٠٦)، ومسلم (١٨٤٧).

وقد أكتفي في بعض الحالات بمجرد الإشارة.

فمن أهمّ أسباب الاضطراب في المنهج:

١. ضعف إخلاص العمل لله ﷻ، وضعف العبادة:

إذا كان الإخلاصُ هو أبرزُ أسباب (الاطِّراد) في المنهج، فإن عدمه أو نقصه، هو أبرزُ أسباب (الاضطراب) فيه، فينبغي على طلاب العلم والدعاة، أن ينتبهوا؛ حتى لا يؤخذوا من حيث لا يشعرون، بسبب نقص الإيمان والإخلاص. ومن أسباب نقص الإيمان ضعف العبادة، فالإيمان عند أهل السنة يزيد بالطاعة، فليجتهد المرء خاصةً في المحافظة على السُّنن الرواتب، وأذكار الصباح والمساء، وأذكار ما بعد الصلاة، وليحرص الدعاة على أن يكون لهم نصيبٌ من قيام الليل، لا يُفرِّطون فيه، فإن ذلك مما يعينهم على شؤونهم، ولا يصح أن يعتذر عن هذا بالشغل في شأن الدعوة، بل من أراد العون من الله فليستعن بالصلاة والذكر، فإن كانت قد حصلت غفلة بسبب الأشغال فليتدارك المرء نفسه، عسى أن يكون من جملة المتّقين الذين: ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف].

٢. ضبابيَّة الأهداف، وافتقارها إلى التحرير الشرعيّ:

إن ضبابيّة الأهداف وافتقارها إلى التحرير الشرعيّ، هو من أكبر أسباب الاضطراب، فلن يحقّق الداعية هدفاً معتبراً، وإن كان شُعلةً من النشاط في خدمة الدِّين، إذا كانت رؤيته ضبابيّة، وأهدافه غامضة،

تراه يجمع بين فساد الأصل، وضعف المنطلقات، وهشاشة الأركان التي بنى عليها دعوته، مع قلة العلم، وعدم وضوح الطريق.

ولنقف مع هذه الحقيقة: لما قامت دولة الرافضة، قبل أكثر من ثلاثين عاماً، نهض كبار العلماء، وعلى رأسهم الشيخ عبد العزيز بن باز ﷺ، بواجب البيان، محذّرين من شعارات تطبيق الشريعة الإسلامية، التي رفعتها هذه الثورة، ومنبّهين إلى خطورة منهج الشِّيعة بمدارسه المختلفة، ولكن رأينا بعض الجماعات الإسلامية، تؤيِّد قيام دولة الرافضة لرفعها شعار الإسلام على يد الخميني، وكان أمراً محزناً، لكننا فوجئنا لما رأينا من بين هؤلاء المؤيّدين أناساً وُلدوا في هذه البلاد، وتربَّوا فيها ودرسوا على منهج أئمة الدعوة، يرون كذلك أن هذه الدَّولة الشّيعيّة دولة إسلامية، وكنَّا نجادلهم، ونعبِّر عن تعجُّبنا، فنقول: سبحان الله! كيف لدولة رافضيَّة أن تكون دولة إسلامية؟ وفي الواقع أُصيب كثيرٌ منهم بخلطٍ، سببُه أنهم كانوا منفعلين بالجانب الآخر من الصُّورة، حيث قامت هذه الثَّورة على أنقاض نظامٍ استبداديٍّ معروف، ففي غمرة الفرح بسقوط طاغية إيران، لم تتبيّن لهؤلاء الإخوة ملامح الوجه الحقيقيّ للدَّولة الرافضية، وكان هؤلاء الإخوة على خُلقٍ والتزام واضح، لكن عندهم ضبابيَّة في الأهداف، يُحبُّون الخير والإسلام والدعوة، ففرحوا بتلك الثَّورة، متوهّمين أن هذه الدَّولة ستنصر الإسلام والمسلمين، فإذا باللثام يُماط شيئاً فشيئاً عبر مجريات الأحداث، ليظهر الوجه القبيح لهذه الدَّولة، التي نكلت بالمسلمين من أهل السنَّة حيث طالتها أيديهم، وعانت منها الأُمَّة أشدّ

المعاناة، حيث امتدّ تدبيرهم إلى أقدس البقاع: مكَّة، في الأشهر الحرم، في موسم الحجّ! وكان عندهم مخطط تخريبيٌّ كبير، يرفعون فيه شعار أن مكَّة مدينةٌ عالميّة، وردّد مقالتهم بسذاجةٍ بعض الغوغاء والجهلة.

فهذا النَّموذج دليلٌ واضح على أن غياب الأهداف الواضحة المحرّرة، مع حضور الحماسة، يُمكن أن يُحدثَ مشكلة، ومحنة، وفتنة، واضطراباً، حتى على مستوى جماعاتٍ ودعاةٍ كبار. والله المستعان.

وقد تكرر المشهد مرة أخرى في مشاهد متعددة، لنُفاجأ كذلك بجماعاتٍ وأناسٍ نتوسّم فيهم الخير، يقفون مواقف محزنة، والسَّبب في ذلك: ضعف الأصول، وضعف المنطلقات، وضعف تمسُّكهم بمنهج أهل السنَّة والجماعة.

٣. قَصْرُ منهج السلف الشامل على بعض آحاده:

هذا السَّبب من أسباب الاضطراب، يتعلّق بتحرير منهج السَّلف، تحريراً متكاملاً، يشمل جميع جوانبه، ذلك أنّ بعض من يزعم أنه ينصر منهج السَّلف، في بعض القضايا والأمور، نجده يقصُره على بعض آحاده، مُغفلاً بعض جوانبه الأخرى، إن لم يكن مخالفاً لها.

إن قَصْرَ منهج السَّلف على بعض آحاده خطأ كبير، فمنهج السَّلف أشمل وأعمُّ مما يتصوره كثيرٌ من النَّاس، لذا فإن عدم تحرير منهج السَّلف، الذي هو منهج أهل السُّنَّة والجماعة، يوقع في هذا الخلط، فتجد من يسلك هذا المسلك، يناقض نفسه بنفسه، إذ يأخذ بشيءٍ، ويُضادُّ أشياء هي من منهاج السَّلف.

٤. عدم رسوخ القناعة بالمنهاج:

قد رأينا أنّ من أسباب الاطِّراد في المنهاج: القناعةَ به، وفي المقابل عدم رسوخ القناعة بالمنهاج، هو سببٌ رئيسٌ من أسباب الاضطراب. ومن علامات عدم القناعة بالمنهاج: كثرة الشكِّ والتردُّد، والاجتهاد فيما لا مجال للاجتهاد فيه، وضعف البصيرة بالشرع، مع ضعف العبادة.

ومن مظاهر ذلك: استحداث الأقوال الجديدة، والآراء الشاذة، والأفكار المخالفة لمقررات السلف وأفهامهم.

وبعض من ينادي اليوم بالأفكار المحدثة كان قبل سنواتٍ يقول بالقول الذي يوافق منهاج السَّلف، وهذا دليل على أنّ قناعتهم بمنهاج أهل السنة لم تكن راسخةً، وإلا لما تغيَّروا بهذه السهولة، والذي يبدو أنهم وجدوا الناس على شيء فصاروا معهم، ولـمّا تغيَّر الوضع، وبدأت تُشنُّ الحملة الإعلامية الضَّارية، على منهاج السَّلف، تغيَّر رأيهم بسهولة؛ لأن القناعة بالمنهاج، لم تكن راسخةً عندهم أصلاً.

٥. عدم القدرة على الدفاع عن المنهاج:

هذا السبب من أسباب الاضطراب في المنهاج، وفيه يكون الإنسان -خلافاً للسّبب السَّابق- مقتنعاً بمنهجه قناعةً راسخة إلى حدٍّ ما، لكنه لا يمتلك القدرة على الدِّفاع عن أهدافه التي يسعى إليها، ولو كان مقتنعاً بسلامتها وصوابها.

تجد مثل هذا الشخص أحياناً يوافق على بعض الأقـوال، أو يؤيّد بعض المواقف، ممّا لا ينسجمُ مع قناعته المكنونة في صدره، ثمّ لو جلست معه وراجعته؛ لقال لك رأياً آخر، مثالُ ذلك: فوجئت بمن يروي لي عن بعض الدُّعاة، ممَّن أعرفهم بالخير والصَّلاح والعلم والفضل؛ أنهم يرون أنّ ما يجري في بعض بلاد المسلمين المحتلة لا يُعتبر جهاداً، فتعجّبت: ما الذي حدث؟ فتبيّن بعد مواجهتهم أنّهم كانوا قد وقعوا في أَسْر الضَّغط الإعلاميِّ المكثّف، فقالوا ما قالوا! وإنما أوقعهم في هذه مشكلة عدم قدرتهم على الدِّفاع عن منهجهم وأهدافهم، فكان يسَعُهُم السُّكوت، لكن لا يسعهم بحالٍ أن يقولوا الباطل، وعندما يخلو الناس بهم يقولون الحقّ.

٦. العجلة واتخاذُ القرارات والمواقف الارتجاليَة:

العجلة، واتخاذ القرارات، والمواقف دون دراسةٍ أو تمحيص، مع غياب أيّ نوعٍ من أنواع التخطيط بعيد النظر، من أعظم أسباب الاضطراب، وأعرف أناساً كانوا على خير، وبعضُهم يعرف منهاج أهل السُّنَّة، لكنهم وقعوا في الفتنة التي عانت منها بلادنا، فيما سُمّي بأحداث التَّفجيرات، فسبحان الله! ما هو السَّبب في ذلك؟

السبب هو العجلة، وبالتالي عدم التأني في اتخاذ القرارات والمواقف.

وفي دروسٍ ألقيتها، تحت عنوان: (إنّ إبراهيمَ كان أمَّةً.)، لفت نظري من الملاحظ العجيبة في قصّة إبراهيم عليه السلام؛ أنّه بعد سنوات طويلة من الجهاد، والبلاء، والإلقاء في النار، يقول الله ﷻ: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ

﴿ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ ﴾ [العنكبوت: ٢٦]، مع بطء الاستجابة لم يستعجل ﷺ.

وقد وقفتُ متأمِّلاً في قوله تعالى: ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ ﴾ [الأنبياء: ٥٨]، وتساءلت أليس الصنم الكبير أولى بالتَّحطيم من الأصنام الصِّغار؟ فلماذا أبقى إبراهيم ﷺ كبيرهم، وحطّم ما دونه؟ أعلى سبيل المجاملة لقومه؟ كلا وحاشا! وإنما كان ذلك -والله أعلم- تدبيراً اصطنعه إبراهيم في سياق جداله ومحاجّته لقومه، على سبيل إقامة الحجّة عليهم: قال تعالى: ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الأنبياء]، يقول ابن كثير: «ذكروا أنَّه وضع القَدُّوم في يد كبيرهم، لعلَّهم يعتقدون أنَّه هو الذي غَارَ لنفسه، وأنِفَ أن تُعبدَ معه هذه الأصنامُ الصِّغار، فكسَّرها»(١)، فلم يكن تحطيمه ﷺ للأصنام عملاً ارتجالياً، أو انفعالياً، كلا! بل تخطيط محكم هادئ، وتدبير حكيم. وممّا يؤكد أنّ إبراهيم ﷺ قد فعل ذلك في سياق خطة لمحاجّة قومه، استثارةً لوعيهم وفكرهم، وتنبيهاً إلى حال كونهم يعبدون حجارةً لا تنفع ولا تضرّ؛ قولُه تعالى بعد ذلك: ﴿ قَالُوا فَأْتُوا بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ ﴾ [الأنبياء: ٦١]، «أي: على رؤوس الأشهاد، في الملأ الأكبر، بحضرة النَّاس كلِّهم» يقول ابن كثير: «وكان هذا هو المقصود الأكبر لإبراهيم: أن يتبين في هذا المحفل العظيم كثرةُ جهلهم وقلةُ عقلهم، في عبادة هذه الأصنام، التي لا تدفع عن نفسها ضرًا، ولا

---

(١) تفسير ابن كثير: [٥/ ٣٤٩].

تملك لها نصرًا، فكيف يُطلب منها شيءٌ من ذلك»؟[1].

فكان إبقاء الصَّنم الكبير، من قبل إبراهيم ﷺ في سياق مُحاجّته لقومه، وكان إبراهيم حكيماً في إبقائه لهذا الصَّنم، لهذا السَّبب ولغيره من الأسباب[2]. ونستطيع أن نستنبط من ذلك أنه من الممكن إبقاءُ الباطل مراعاةً لمصلحةٍ، أو دفعاً لمفسدة، وما أحوجَنا إلى هذا المنهج النَّبوي الرائع، الذي رأيناه كذلك مع نبيّنا محمدٍ ﷺ، حيث كان في الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً، ولم يكن من العسير، أن يبعث فدائياً يجود بروحه، أو يتسلل في جنح الليل، ليجعلها كلّها، أو بعضها حطاماً. وقد يُقال: إنه عندئذٍ يُثبت لأهل مكَّة بالبيان العمليّ أنّ هذه الأصنام لا تضرُّ ولا تنفع؟ لكنه ﷺ لم يفعل! فلم يكن غرضه التشفي، وكانت حُجة قومه قائمة على التسليم بكونها مجرد وسائط، فكان مقتضى الحكمة عند رسول الله ﷺ أن تبقَى الأصنام في مكّة إلى اليوم الذي يدخل فيه محمد ﷺ الكعبة ويطعنها بيده الشريفة، ويقول: **(جاءَ الحقُّ وزهقَ الباطلُ، إنَّ الباطلَ كان زَهوقاً)**[3].

والمقصود أن العجلة هي داء الأُمَّة، والتَّفجيرات التي حدثت في بلادنا، وفي بلادٍ أخرى، هي ثمرةٌ من ثمار هذا الفكر المجافي للأناة والتريُّث، والقائم على العجلة وعدم التثبُّت، مع ضعفٍ في الفقه

(١) نفس المرجع والموضع السابق.

(٢) هذه الأسباب مبسوطة في دروس: (إنّ إبراهيم كان أمّة) للمؤلف، انظرها في موقع المسلم.

(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري (٤٧٢٠)، ومسلم (١٧٨١).

والعلم، والله ﷻ يقول: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟ ﴾ [النساء: ٩٤]. ولنقرأ في سير الأنبياء والمصلحين والأخيار، ولنتأمل في مناهجهم القائمة على التبيُّن والتثبُّت.

وأرجو ألا يُسيء أحدٌ فهمي، فيظنَّ أنِّي أُهَوِّنُ من مقام القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولقد سرّني كثيراً التَّجاوب الذي ألحظه من عامّة الناس، في استنكارهم لبعض ضروب المنكر التي تظهر هنا وهناك، من حينٍ لآخر، كما حدث في الوقت الذي كنتُ أُلقي فيه هذه الدُّروس، حيث كان مقرّراً أن يُقام منكرٌ عظيم بأحد الفنادق، فسرَّني ذلك التَّفاعل من الناس لإنكار هذا المنكر، حيث كانت الرسائل تتوالى منكرةً له، وكان الناس متفاعلين مع المفتي، ومع المسؤولين، ومع الإمارة في تلك المنطقة، ومع الهيئة، حتى بلغني أنه قد ألغي ذلك المنكر.

ويومها قلت لبعض أولئك الشباب والدُّعاة وطلاب العلم، الذين هبُّوا لإنكار هذا المنكر: لنفرض جدلاً أنَّ هذا المنكر لم تتمّ إزالتُه، هل يحقُّ لنا أن نُغيّره بأيدينا؟

فبيّنتُ لهم أنّ هذه ليست مهمّتَهم، بل هي مهمَّةُ الهيئة، والجهات الأمنيَّة، على أن تبقوا في حال متابعةٍ ومراجعةٍ للمسؤولين، والعلماء، والمشايخ، وأن تستمرَّ المجاهدة بشتى الطرق، والوسائل الشرعيّة، القائمة على الحكمة، والموعظة الحسنة، فيجب أن تبقَى جذوة هذا التفاعل الإيجابيّ العظيم متّقِدةً في صدورنا.

وكما هو معلوم، فإنّ بعض هذه الأمور المنكرة، بقيت لسنواتٍ، ولم ييأس الناس من تغييرها، وبحمد الله تغيّرت بعد الصبر والحكمة.

وبعد ذلك وقبله، ينبغي أن نتذكَّر أنّ الأمرَ لله، من قبلُ، ومن بعدُ، وكما يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [القصص]. فالاستعجال من أعظم الأدواء، وكما ذكرت لكم، فإنّ بعض أولئك المتعجّلين، الذين كانوا وقوداً لأحداث التَّفجيرات المعروفة التي أنكرها العلماء، كانوا على مرتبةٍ عالية من الصِّدق، فما الذي حدث لهم؟ إنّه بلا شكٍّ: الاستعجال، والرّغبة في إحقاق الحقّ، وإبطال الباطل بالقوّة المطلقة، مع عدم صبر وحسن تقدير للأمور، وهكذا كل من تسرع في إنكار منكر بما هو أنكر، فحقه أن ينكر عليه: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الروم].

٧. الفرديَّة وعقلية الأنا:

من أسباب الاضطراب في المنهج، سيادةُ عقليةٍ فرديّةٍ أنانيّة، تقوم على أساس تهميش الآخرين، يقول لسانُ حال صاحبها: ما أريكم إلا ما أرى! ويرى الواحد منهم أنه المعنيُّ في قول الشاعر:

إذا قالت حذامِ فصدِّقوها ... فـإنَّ القول ما قالت حذامِ

نعم، هذا الدّاءُ هو من الأدواء التي بُليت بها بعضُ الجماعات الإسلامية، وبعض الدُّعاة، حيث تراهم لا ينتصحون لنصح

الناصحين، ولا يأبهون بتنبيهات الشيوخ والعلماء، ويرون أنهم قد أوتوا من العلم والفهم ما لم يؤتَ غيرُهم.

وأسهل شيء عندهم إقصاء المخالف وحذفه! والنتيجة أن يبقوا وحدهم، أو معهم رعاع يتبعونهم على غير بصيرة، يرضي بعضهم بعضاً!

٨. الغلوُّ في اتِّباع الرُّموز، والغفلة عن منهاج الحقِّ:

إنَّ بعض الجماعات، أو بعض الأفراد، يُربِّي أَتْباعه على اتِّباعِه، أو اتِّباع الجماعة التي ينتمي إليها، لا على اتِّباع الحقِّ، في حين أنه يرفعُ شعار الحقّ، ويدّعي أنَّه إنَّما يستهدف الحقّ!

والفارق بين الدَّعوة إلى المنهج، والدَّعوة إلى الرَّمز، فارقٌ شاسع، فتربيةُ الناس على اتِّباع الرَّمز، سواءٌ كان فرداً أو جماعةً، معناها الضَّلال، ذلك أنَّ الجماعات القائمة على التَّعصُّب شأنُها أنهم:

لا يسألونَ أخاهم حين يندُبهم

فـي النَّائباتِ على ما قالَ بُرهانا

فانتماء الأفراد إلى مثل هذه الجماعة، على طريقة قول القائل:

وهل أنا إلا من غَزِيَّةَ إن غوت

غَويتُ وإن ترشُد غزِيَّةُ أرشُـدِ

وهذا أمرٌ خطير جدّاً، أردى الأولين الذين قال الله فيهم: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ [البقرة: ١٧٠]،

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ [المائدة: ١٠٤]، ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الزخرف]، بينما إذا رُبِّي النَّاس على اتِّباع المنهاج الحق، والسيرِ على الصراط المستقيم، صراطِ الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض، فسيكون شأنهم، أنهم لو أخطأ الرَّمزُ قالوا له: قف، أخطأت! وإن لم يستجب تركوه!

وفي دروس: (إنَّ إبراهيم كان أمة) نبَّهني أحد الإخوة إلى ملحظٍ مهمٍّ، وهو أنَّ الله ﷻ لم يقل لنبيّنا ﷺ وللمؤمنين من ورائه: اتَّبعوا إبراهيم! بل قال له، ولمن وراءه: ﴿ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [النحل: ١٢٣]، ﴿ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾ [آل عمران]، هذا على الرغم من أنَّ إبراهيم نبي معصوم، لكن يجيء هذا التَّوجيه سدّاً لكلِّ أبواب الشِّرك والانحراف، خاصّةً والناس بعد ختم النّبوّة، إنَّما يتّبعون غيرَ المعصومين، فكلٌّ يؤخذ من قوله ويُردُّ إلا رسولَ الله ﷺ.

وكذلك نلحظ أنه لما قال الله ﷻ في سورة الأنعام، بعد أن عدَّ الأنبياء: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ﴾ لم يقل بعدها: فبهم اقتده، وإنما قال: ﴿ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام: ٩٠].

وفي سورة لقمان، لم يقل: (واتَّبع من أناب إليَّ)، بل قال: ﴿ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾ [لقمان: ١٥]. وهذه إشارةٌ قرآنية ذات دلالات منهاجيّة كبيرة، فتدبّرها، بوركتَ!

ومعلوم أنّ البدعة تلد أختها، والمعصية تؤدي إلى ما هو أشدُّ منها، فالناس إذا رُبُّوا على اتِّباع الشخص لا المنهاج، زيّنوا للشخص الذي هو الرَّمز أو القائد، أن يتساهل في اتِّباع الحقِّ؛ لأنَّ الناس تبعٌ له، بخلاف ما إذا عَرف أنَّ الناس تبعٌ للحقِّ والمنهج، وليسوا تبعاً لشخصه، فهذا يُيسِّر له أمر الاهتداء بالمنهج، ويحول بينه وبين الوقوع في الانحراف! فليت الناس يُفاصلون -عندما يُفاصلون- على المنهاج لا على الأشخاص، فهذا شأن الذين يوقنون! وتدبّر هذه الآية العجيبة: ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ﴾ [الزُّخرف: ٥٤].

٩. اتخاذ البِطانة غير الصّالحة:

ومع هذا السَّبب الأساس من أسباب الاضطراب في المنهج، يكون القرناء، والمساعدون، والمستشارون، المحيطون بهذا العالِـم، أو الدَّاعية دون مستوى المسؤولية، أو تربَّوا على مناهج تختلف عن المنهج الذي يدعو إليه.

ويتوهّم بعض الناس، أنه لا يتأثّر بمن هم حوله من القرناء، ونقول له: اقرأ هذا الحديث الصحيح، عن أبي سعيد الخدري

رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ قال: (ما بعث اللهُ من نبيٍّ، ولا استخلف من خليفةٍ، إلا كانت له بطانتان، بطانةٌ تأمُره بالمعروف، وتحُضُّه عليه، وبطانةٌ تأمره بالشَّرِّ، وتحُضُّه عليه، فالمعصومُ من عصمهُ اللهُ تعالى)[1]. فإذا كان لكلِّ نبيٍّ بطانتان، فكيف بغير النبيّ؟ وتأمّلوا في هذه الآيات القرآنيّة، كيف تُصوّر هذا الأمر وتُجسّده، وكيف تحذّر من القرين أيّما تحذير: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الصافات]. حقّاً لمثل هذا فليعمل العاملون، وليكن من أوّلِ ما يقومون به من العمل: أن يُولُوا أمر اختيار البطانة المحيطة بهم كلّ اهتمام، فإنّ القرينَ يكاد يُردي صاحبه:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه

فكلُّ قرينٍ بالمقارن يقتدي

وإنها والله نصيحة عن واقع وتجربة ومشاهدة، أبُثُّها لإخوتي الدُّعاة وطلبة العلم، أن يخلوَ أحدُهم مع نفسه، ثم يستحضر صور قرنائه، ويتفكّر متسائلاً من واقع معرفته بكلّ واحدٍ منهم -وإن كانوا أخياراً

(١) رواه البخاري: (٦٦١١).

وطيِّبين: هل هو أهلٌ لأن يواصل معه المسيرة؟ هل علاقته به ستُعينه على الخير وتنميه فيه، وتُبعده عن الشر أم لا؟ وعندئذٍ ينبغي أن يكون حريصاً على دينه ومستقبله، ويتّخذ قراراً حاسماً بالبقاء أو المفارقة.

وأُنبِّه إلى أنّ المفارقة في هذه الحالة، لا ينبغي أن تكون إلا بالمعروف، من خلال المصارحة، وبذل النُّصح لمن ترى أنهم ليسوا أهلاً لأن يكونوا من قرنائك وأصحابك، فلربّما يصلحون بعد النصيحة.

هذا أمرٌ ينبغي أن يوليه الدَّاعية ما يستحقُّه من العناية. وأعرف يقيناً أناساً ممّن ابتُلوا ببعض البلاء، يعترفون بأنَّ من أسباب بلائهم البطانةَ المحيطة بهم، وأنها هي التي أوردتهم الموارد! وهذا الأثر السيِّئ للقرين، يحدث بغضِّ النظر عن حسن نيَّته، أو سوئها.

فشأن البطانة عظيم، ولذلك تلحظون أنَّ من أهمِّ الأدعية التي يُدعى بها للحاكم قولُهم: وارزقه البطانة الصالحة..! فإذا كانت البطانة صالحة، ساعدته وأيدته، وقوّته، ودلَّته على الطريق، وإذا كانت البطانة فاسدةً -والعياذ بالله- أوقعته في المهالك، وفي البلاء. وكلُّ إنسانٍ هو حاكمٌ على نفسه، فإن كان من الدُّعاة وطلبة العلم، فإنه يدرك أنّ مسؤوليّته في النهوض بالدَّعوة كبيرةٌ، ومن ثمّ فينبغي أن يجتهد في أن تكون له بطانةٌ صالحةٌ، تُعينه على الصبر في هذا الطريق، فمن أعظم أسباب الاضطراب في منهج الدَّعوة، البطانةُ التي تحيط بك.. ندماؤك، ومن يُجالسونك، ويؤاكلونك، ويُشاربونك، فاتّقِ الله في هذا الأمر، وتذكر قول القرين لقرينه: ﴿ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ ٥٦ وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ٥٧ ﴾،

فمجرد الصلاح وحده لا يكفي، بل هل لديه من الكفاءة، والعلم، والعقل، والحكمة، ما يصلح أن يكون قريناً؟

١٠. الاستجابة للضُغوط:

والضّغوط التي تُسبِّب الاضطراب في المنهج، قد تكون مباشرةً، أو غيرَ مباشرة، وقد تكون من الأتباع، أو من غيرهم من القوى المؤثِّرة. ومن مظاهر الاستجابة لهذه الضُّغوط: الانحناءُ أمام العواصف والرِّياح، والاستغراقُ في اللحظة الحاضرة، والتأثرُ بردود الأفعال.

وكثير من أهل العلم رفعهم ثباتهم أمام الضغوط والمغريات، فشيخُ الإسلام ابن تيمية كان جبلاً في الثَّبات والصُّمود في مواجهة الضُّغوط، بشتّى أنواعها، رغم أنّ ممن مارسوا عليه الضُّغوط، علماءَ مُحيطين بالسُّلطان. ومن قبله كان الإمام أحمد، ومن بعده الإمام محمد بن عبدالوهاب، وغيرهم كثير من علماء الأُمَّة وقادتها، كسلطان العلماء العزّ ابن عبد السَّلام، كلُّهم مُورست عليهم شتّى أنواع الضُّغوط، لكن صمدوا فلم ينحنوا لها، فرفع الله ذكرهم، وأقام منهاجهم.

فيا ليت بعضَ الدُّعاة وطلابَ العلم، يستلهمون هذه السِّير العطرة النبيلة، ويستمدّون منها الثَّبات، ذلك أنّ الواحد منهم، يُفاجؤونك بصدورِ بعض الرُّؤى والفتاوى الناشزة، فإذا ما راجعتَه، اعتذر إليك بأنَّه كان واقعاً تحت تأثير بعض الضُّغوط، وكان يسعه السُّكوت، إذ لم يصل الإكراه به إلى قول الباطل.

١١. التناقض بين القول والعمل، وعدمُ الانسجام بين الظاهر والباطن:

وحالُ المتلبّسين بهذا السَّبب من أسباب الاضطراب، كحال من نعى اللهُ تعالى عليهم ما يُعانونه من تناقضٍ بقوله: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤]. وبقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢﴾ [الصف]. ويُخشى أن تكون حالهم، كحال الذي يُلقى (**فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فِي النَّارِ فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِرَحَاهُ، فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ فَيَقُولُونَ: أَيْ فُلَانُ، مَا شَأْنُكَ؟ أَلَيْسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنِ المُنْكَرِ؟ قَالَ: كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَاكُمْ عَنِ المُنْكَرِ وآتيه**) [١].

ولعلّ من دوافع الوقوع تحت طائلة هذا التناقض: السَّعيَ لإرضاء جميع الأطراف على حساب المنهج، والخوفَ من النَّقد، ولقد قال الإمام المسدّد المبارك، الإمام الشافعيُّ، لصاحبه الرَّبيع كلمةً رائعةً، ذهبت مثلاً، وسارت بذكرها الرُّكبان، قال له: «يا ربيعُ، رضا الناس غايةٌ لا تدرك»![٢] سواءٌ كان هؤلاء الناس هم أتباعك، أو أفراد أسرتك، أو غيرهم، فسُدَّ هذا البابَ، واشغَلْ نفسك بما يُصلحها، فالزمه.

وبعض الناس قد يتنازلُ عن دعوته ومنهجه، كلّيّاً أو جزئيّاً؛ من أجل إرضاء زوجته، وبناءً على ما قرّره الإمام المبارك، ستكون نتيجةُ

(١) متفق عليه، البخاري: (٣٢٦٧)، ومسلم: (٢٩٨٩).

(٢) مناقب الإمام الشافعي، لأبي الحسن الآبري السجستاني: [١/ ٩٠ - رقم المنقبة: ٥٣].

هذا التنازل، أن تبقَى الزَّوجة غيرَ راضيةٍ، وتبقَى متطلّعةً لتنازلٍ جديد، فالزم ما قاله الإمام الشافعيُّ: «رضا النَّاس غايةٌ لا تُدرك، فعليك بما يُصلحك فالزمه». فالحقُّ يقتضي منك ألا تظلم زوجتك، أو أولادك، أو أيَّ أحدٍ من البشر، وألا تظلم نفسك أيضاً، بتنازُلك عن الحقِّ كلّه؛ إرضاءً للبشر، كائناً من كان، فإنَّما الطَّاعة في المعروف.

١٢. عدمُ استفادة الدَّاعية من نقد الآخرين ونصحِهم في تصحيح مسيرته:

والدافع إلى الوقوع في هذا السَّبب من أسباب الاضطراب، هو أنّ كثيراً من النفوس الإنسانيّة يصعب عليها قَبولُ النُّصح من الآخرين؛ ولاسيما إذا كان المنصوح يحسب النُّصح نقداً لشخصه، أو كان الناصح مجانفاً للحكمة ولو قليلاً، والواجب على من سمع نصيحةً ألا يُبادر إلى الرّدّ، بل يُحاولُ تفهُّمَ مغزى الكلام، ثمّ إن كان فيه من حقٍّ قبله، وأثنى على الناصح له خيراً، وإن كان باطلاً ردّه بهدوء، وحكمةٍ، وإيضاحٍ للناصح، مع شكره على حسن نيّته.

وأذكر في هذا الصّدد قصَّةً طريفة، عن أحد الأشخاص وهو يرويها بنفسه فيقول: كنتُ في مدينة جدة، فدخلتُ أحد مساجدها لأُصلّي، ثمّ كما هي العادة عند الكثيرين، بعدَ تكبيرة الإحرام بدأتُ أزيِّن ثيابي، وأُحَسّن هندامي، وأُهندِسُ شماغي، وأمسح عن وجهي ما تبقّى من ماء الوضوء، ثمّ بعد أن فرغتُ من صلاتي وسلّمتُ، قال لي أحد الجالسين: أهذه صلاةٌ، يا أخي الكريم؟ وكيف تكونُ

صلاةً وأنت عاكفٌ فيها على تزيينِ أكمامك، ومسحِ وجهك، وتزيينِ شماغك؟ فقلتُ له: حتّى لو أنّني أخطأتُ، وقصّرتُ في صلاتي، فأنت لست مؤهّلاً لنصيحتي، لأنّك كذا وكذا..! فبدأتُ أذكر بعض عيوبه الظاهرة، مع أنّني لا أعرفه. فقال لي: جزاك الله خيراً، أنا لا أُنكر أنّني مقصّرٌ يا أخي، لكن هذا لا يمنعني من أن أنصحك في صلاتك! فقلت له: لستُ بحاجةٍ إلى نصحك! وهكذا افترقنا، ثمّ في يومٍ آخر، وأنا أُصلّي، تأمّلت في حالي، وأنا في الصلاة، واقفاً بين يدي الله، فشعرتُ بالحياء من الله؛ لكثرة حركتي، وانشغالي عن صلاتي، وصرتُ منذ ذلك اليوم أجتهدُ في إقامة صلاتي، وأدعو لذلك الرجل، وهو لا يعلم، حيث كان سبباً في إصلاح أعظم ركنٍ في ديني بعد الشهادتين.

وهذه القصّة تُصوّر حال كثيرٍ من الناس إزاء النصيحة، إذ يرونها استطالةً من الناصح على مقامهم السامي الرفيع! فيرُدّونها ويدفعونها، مهما يكن فيها من حقٍّ وحقيقة. أما المؤمنون الكُمَّل فالحق عندهم أكبر من نفوسهم، ولنأخذ الدرس من سُليمان ﷺ؛ لـمّا قال له الهدهد: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ [النمل: ٢٢]. سليمان ﷺ الذي أعطي الملك والنُّبوة، يجابهُه الهدهد بهذا الشُّموخ! قائلاً: إنه يعلم بأمرٍ مهمٍّ، لا يُحيط به سليمان علماً! فعلى من لم يرضَ كبرياؤه نصيحةَ الآخرين، أن يتعلّم من سليمان ﷺ هذا الدرس في الإصغاء للناصحين، ومَن في مقامهم ومنحهم مجالاً للتعبير، فربما كانوا محقّين فيما لحظوه علينا، وعندئذٍ نستفيد من توجيههم في ترقية سلوكنا وعملنا.

وسليمان عليه السلام، وضع بعض الضوابط والشروط لأجل التحقق من سبب تخلف الهدهد: ﴿ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [النمل]. فاتّضح صدق الهدهد!

فلنقبل النصيحة، ولنفتح صدورنا لما قد يكون فيها من الفائدة، فأبو هريرة رضي الله عنه، قَبِلَ الحق من الشيطان لـمّا علم أنه حق، وذلك عندما أمسكه للمرّة الثالثة، في القصة المعروفة التي رواها الإمام البُخاريُّ في صحيحه، لـمّا قال له الشيطان: (دَعْنِي أُعَلِّمْكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ الله بِهَا! قُلْتُ: مَا هُوَ؟ قَالَ: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ؛ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ: ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ حَتَّى تَخْتِمَ الْآيَةَ، فَإِنَّكَ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ الله حَافِظٌ، وَلَا يَقْرَبَنَّكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ؛ فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ)، فقال له النّبيّ ﷺ: (صَدقكَ وهو كذوبٌ)[1].

١٣. الحزبية، والتقليد، والتعصب للأشخاص، والهيئات، والجماعات، والأجناس والبلدان:

هذه الأمور يكون الإنسانُ إزاءها مثلَ الرَّاكب في سفينةٍ وسطَ الأمواج، والقبطانُ في شُغُلٍ عنها، لا يُبالي بالخطر الداهم. وينبغي ابتداءً أن نميّز هذه الحزبية عن العمل الجماعيِّ، حتى لا نخلط بينهما، سُئل سماحةُ الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله، في مجلة (الحرس الوطني) منذ عدَّة سنوات عن العمل الجماعيِّ، فقال: إذا كان على منهج أهل

(١) رواه البخاري: (٢٣١١).

السُّنَّة والجماعة، لا شيءٌ فيه ولا حرج، والحزبية التي نعنيها هي الحزبيّة المقيتة، التي يتحزّب فيها المؤمنون والدُّعاة، بعضُهم ضدّ بعضٍ:

﴿كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ٥٣﴾ [المؤمنون]، وليس منها حزبُ الحقِّ الّذي يقف أبناؤه صفّاً واحداً، في مواجهة حزب الشيطان: ﴿أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٢٢﴾ [المجادلة].

١٤. اتِّباعُ المتشابه، وتركُ المحكَم:

ما تزال السَّاحة الإسلاميّة تُعاني من هذا الأمر، وبسببه ترك أُناسٌ المسلَّمات والقطعيَّات؛ لينساقوا وراء الظنيَّات، والمصالح الموهومة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦ﴾ [آل عمران: ٧]. ومن مظاهر الاضطراب الناشئ عن هذا السببِ: التوسُّعُ في باب التأوُّل، وتتبُّع الرُّخص، والتَّساهل، ودعوى التيسير على الناس، وتأليف قلوبهم، والتسامح غير المسموح. وكان من ثمرات هذا الاضطراب، أن تغيَّر أُناسٌ ما كنا نحسب أن يتغيّروا أو يتبدّلوا، يقول بعض الناصحين: لما اقتربنا منهم لنصحهم، ألفَينا شُبَهاً وأوهاماً وظنوناً، وتوسُّعاً في باب التأوُّل، أو ادِّعاءً للتيسير، وما إلى ذلك من مظاهر الانحراف المضرّة بصاحبها.

١٥. التعلُّق بالدنيا، واتِّباعُ هوى النفس:

ومن أسباب الاضطراب: أن يتعلق الداعيةُ، أو طالبُ العلم

بالدنيا، ويسعى لنيل بعض مطالبها من منصب، أو مال، أو جاه، ونتيجة لذلك يجعل من نفسه وأهوائها محوراً للولاء والبراء، والحبِّ والبغضِ، والنَّصر والهزيمة. وأعظم مثال لهذا السبب، وما يسبِّبه من اضطراب: قصَّة بلعام ابن باعوراء[1]، التي وردت في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا ﴾ [الأعراف: ١٧٥]، ذلك كله بسبب هوى النفس، يقول الله تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾ [الأعراف].

وهذا المثل، هو واحدٌ من مثلين، يُعتبرانِ أسوأ مثلين ضربهما الله ﷻ في القرآن، وكلاهما من نصيب اليهود:

المثل الأول: هو مثلُ الكلب، الذي مُثِّل به لهذا العالم اليهوديّ بلعام ابن باعوراء.

والمثل الآخر: هو مثل الحمار، الذي شُبِّه به اليهود، بسبب نكولهم عن حمل التّوراة، يقول الله تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾ ﴾ [الجمعة]. لأنهم عرفوا الحقَّ وتركوه، ومن أعظم ما يدفعُهم ذلك: الشَّهوة الخفيّة؛ فتفقّد نفسك ولا تُزكِّها.

---

(١) تفسير ابن كثير:[٢/ ٢٦٥]، وفتح القدير، للشوكاني:[٢/ ٢٦٦-٢٦٧]، وروح المعاني، للألوسي:[٩/ ١١١].

١٦. اعتقاد أنّ النتائج مقياسٌ لنجاح الدعوة:

ومن مظاهر هذا السَّبب، أنه عند تأُخّر استجابة الناس لدعوة الداعي، مع طول الطريق، وقلة المعين، والناصر، يدبُّ اليأس في نفسه، إذ لا يرى آثاراً إيجابيّة دالّةً على أنّ الناس قد تقبّلوا دعوته، فيُصيبه القنوط. ومصدر هذا الخلل، هو الاعتقاد الخاطئ -لدى بعض الدعاة وطلاب العلم- بأنّ النتائج هي المقياس الصحيحُ لنجاح الدعوة(١).

والصحيح أنّ مقياس نجاح الدعوة، هو: مدى التزام الداعية، أو الجماعة بالحقِّ، ومدى ثباتهم عليه، وقد مرّ بنا قريباً، في قصة إبراهيم ﷺ، أنّه بعد الجهاد الذي دام سنواتٍ طويلة، لم يؤمن له إلا لوط ﷺ، بالإضافة إلى سارة زوجة إبراهيم، وعندئذٍ قال إبراهيم ﷺ: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [العنكبوت: ٢٦]، فلم يُخامره اليأس والقنوط، رغم قلة المعين والناصر.

١٧. طول الأمد مع الغفلة عن القلب:

ومن أسباب الاضطراب والتّغير، رغم توالي البيّنات والنُّذر: طول الأمد الذي يؤدِّي إلى قسوة القلوب، كما قال تعالى: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[الحديد: ١٦]. وعندئذٍ يحصل الانحراف، فينحرف بعض الناس، ويتراجعون ويتغيّرون، فاللَّهمَّ سلِّمْ سلِّمْ! وقد سُئِل النَّبيُّ ﷺ: ما شيَّبك؟ قال: (شيَّبتني هودٌ وأخواتها)(٢) وفي

---

(١) راجع كتاب: حقيقة الانتصار، للمؤلف.

(٢) المعجم الكبير: [٢٢/ ١٢٣].

روايةٍ: ما شيَّبك منها؟ قال: قوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾ [هود: ١١٢][1]. والاستقامة على الطريق أمرٌ شاقٌّ، يحتاج إلى بذلِ الجهد، وتوطينِ النفس، وأَطْرِها على الحقِّ، وعدمِ الاستيحاش من قلة الناصر والمعين؛ فانظر إلى مدى التزامك بالحقّ، لا إلى عدد من استجاب لك: ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الزخرف].

١٨. التنافس غير المحمود، وكثرة الجدل، والمراء بين الدعاة وطلاب العلم:

وهذا السبب من الأسباب البليغة في تحقيق معنى الاضطراب في المنهج، وهو مصداقٌ لما قاله أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز: «مَن جعل دينه غرضاً للخصومات؛ أكثر التنقل»[2]، وكان شأنه عدم الطمأنينة والاستقرار، كأنه لا يجيد إلا الجدل، والمراء، والنقاش، وقد حذّر النبيّ ﷺ من ذلك، وبيّن عاقبته، فقال: (**ذروني ما تركتُكم، فإنّما هلك من كان قبلكم: بكثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم**)[3]. وبعضهم يُزين لهم الشيطان أعمالهم، فيظنّون أنهم بافتعال المعارك الجدالية مع من يخالفونهم في الرأي والمنهج، يقومون بممارسة شعيرةٍ مهمّة من شعائر الجهاد في سبيل الله، فيُصبح خلافهم مع الآخر هِجِّيراهم، وشغلَهم الشاغل. وهذا انحراف عن الجادة، وتبديد

---

(١) الجواهر الحسان في تفسير القرآن، للثعالبي: [٣/ ٣٠٤].

(٢) سيرة الأمام أحمد، لأبي الفضل صالح أحمد بن حنبل:[١/ ١٢٠].

(٣) متفق عليه، البخاري: (٧٢٨٨)، ومسلم: (١٣٣٧).

للجهود، وخلط بين حق وباطل، فالردُّ على الخصوم، وأصحاب المناهج المنحرفة، واجبٌ شرعيٌّ، ولكن ذلك يختلف عن المراء، فالمراء في أيّ شأنٍ من الشؤون ليس محموداً، فالله ﷻ يقول: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦] والرَّسول ﷺ يقول: (أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ، وَإِنْ كَانَ مُحِقّاً)[1]، فوفِّرْ جهدكَ إلى من يريد الانتفاع فهو أولى بك، ولا تشغل بالك بمن غايةُ همه إفحامُك أو حرفُك عن الجادة.

١٩. الاختلاط بأهل الأهواء، والبدع، والتأثر بمناهجهم وطرائقهم:

في كلّ بلد من بلاد المسلمين، توجد فئةٌ إما منحرفة عن منهج أهل السُّنَّة والجماعة، كالصوفيّة الغالية، أو متأثرة بالمناهج الغربيّة، كما هو حال من يُسمّون أنفسهم بالتنويريِّين، والليبراليِّن، والعلمانيِّين، فمن أسباب الاضطراب في المنهج، الاختلاطُ بهؤلاء، والتأثر بمناهجهم، وطرائقهم في الحياة. وليست هذه دعوة لاعتزال هذه الفئات، وعدم التعامل معها، بل نحن مأمورون بالصبر عليهم، ودعوتهم بالحكمة، والموعظة الحسنة، عسى أن يهتدوا، ويكونوا من الدُّعاة المخلصين، ولكن المقصود هو عدم التأثر بهم، والحال أنهم قد صار لهم حضور إعلاميٌّ، وتأثير كبير، وبرغم كونهم أقليّةً في مجتمعنا، لكن هيمنة

(١) رواه أبو داود في السنن، رقم الحديث: (٤٨٠٢)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم: (٢٧٣).

الإعلام العالمي، ووسائط الاتصال والإنترنت -التي تعبّر عموماً عن ثقافتهم وعقائدهم- تمدُّهم بقوة كبيرة، وتسوق الشباب من خلال برامجها الثقافية والترفيهية، حتى يلتحقوا بركبهم، ومن ثمّ يتابعون مواقفهم، ويقرؤون كتبهم، ويُعجبون بسيرهم، ويتابعون برامجهم: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ﴾ [النساء]، ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأنعام].

وفيما وراء هؤلاء العلمانيّين، نجد فئةَ من يُسمَّون بالمدرسة العقليَّة، وهم أبعدُ الناس عن العقل، وقد كان من ضمن المساهمات التي تلقّيتُها، لدى طرحي لهذا الموضوع أول مرّةٍ، مشاركة جاءتني من أحد كبار طلاب العلم، تتعلّق بأصحاب المدرسة العقليّة، هأنذا أُثبتُ نصّها، يقول:

«إنَّ من الفتن التي حدثت على الساحة اليومَ، ظهورَ ليبراليِّين بأشكالٍ جديدة، صاروا مطايا -شعروا أم لم يشعروا- للعلمانيِّين، والليبراليِّين الأصليِّين، فاختصروا الطريق على العلمانيين والليبراليين، بتبنِّيهم لمقولاتهم، التي ظاهرُها الإصلاحُ، وباطنُها لا يخفى على لبيبٍ، لئن كان الناس في زمن مضى لا يُبالون بما يطرحه فلان وفلان، من أئمة العلمنة والفكر المنحرف، لكونهم لا يعرفون هؤلاء المتحدِّثين

بصلاحٍ ولا استقامةٍ؛ فإن الفتنةَ اليوم قد عظُمَت، عندما أصبح الناس يسمعون مقالة العلمانيِّ والليبراليِّ، من شخصٍ قد يُعرف بالخير، وربما نُسب إلى بعض طلبة العلم، أو جهةٍ شرعيَّة، وهناك تكمُن الخطورة، ويعظم التلبيس على العامَّة، وربما بعضِ الخاصة، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليِّ العظيم! وسببُ ذلك هو: انهماكُ هؤلاء الذين لا يُحسبون على الأخيار، ولا على طلاب العلم، في قراءة كتب أقوامٍ أسموها إسلاميَّة، مؤلِّفوها يُعَدُّون من المفكِّرين المسلمين، وهم للأسف يعرفون عن الغرب والفلسفة الغربيّة أكثرَ مما يعرفون عن الإسلام، بل وعن نبيِّ الإسلام ﷺ وصحابته الكرام. وما تعلَّموه من الإسلام تعلَّموه على الطريقة الغربيَّة، فأصبحوا ينقُدون الإسلام، وتصرُّفات أهله، بمقاييسَ غربيَّة، ولذلك فإنّ من أصولهم أنّ كلَّ شيءٍ قابلٌ للنقد، لا يفرقون بين ثوابتَ ومتغيِّراتٍ، والسبب أنَّ الفلسفة الغربيَّة تُربِّي تلاميذها على ذلك، فعظُمت الفتنة بهؤلاء، لكنْ كلُّ هذا لا يزيدُنا إلا يقيناً بسنة الله في التمحيص؛ ليَميز اللهُ الخبيثَ من الطيب: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [فاطر]». انتهى.

والحديث عن هذه الفئة يطول جداً، لكن أردتُ الإشارة إلى أثر الاقتراب من أهل الأفكار المنحرفة على اضطراب المنهج والتشكيك فيه، فضلاً عن الثَّبات عليه، فجزاه الله خيراً على هذه الكلمات النيِّرة. حقّاً، إنها جبهة أخرى قد فُتحت لمحاربة الإسلام، بأيدي وعقول

بعض أبنائه، ممّن تأثّروا تأثّراً سلبيّاً بالمذاهب الغربيّة فتعرّضوا لها، حتى اجتاحت عقولهم، وصاروا يُردِّدونها ويدعون إليها، تحت ستار الفهم التجديديّ للدين، رافعين لافتةَ أنهم مفكرون إسلاميّون، بيد أنهم يوجِّهون أسِنّة أقلامهم باللوم والسخرية من المسلمين ومن طرائقهم، في مقابل تمجيد الغرب وأهله وحضارته، مع كلِّ أسف!

٢٠. ضعف الالتزام بمنهج الوسطيَّة في الاعتقاد والقول والعمل:

وقد أدّى هذا الضّعف في فهم الوسطيَّة، إلى نتائج متباينة، يجمع بينها البُعد عن نقطة الوسط انحرافاً إلى طرفي قصد الأمور، يقول النبي ﷺ: (**ولن يُشادَّ الدِّين أحدٌ إلا غلبه**) [١]، ويقول ﷺ: (**سَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَاعْلَمُوا أَنْ لَنْ يُدْخِلَ أَحَدَكُمْ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ، وَأَنَّ أَحَبَّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللهِ أَدْوَمُهَا، وَإِنْ قَلَّ**) [٢]، وذلك هو منهاج إبراهيم عليه السلام، الذي يدعونا القرآن إلى اتّباعه: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨].

إنّ حاجتنا اليومَ ماسّةٌ إلى منهج الوسطيَّة الحقّة، بما يتميّز به من الاعتدال والسَّماحة، التي تتمشَّى مع دين الإسلام، وقد ورد في السُّنة أنه: (ما خُيِّر رسولُ الله ﷺ بين أمرينِ إلا اختار أيسرهما، ما لم يكن

---

(١) رواه البخاري: (٣٩).

(٢) متفق عليه، البخاري: (٦٤٦٤)، ومسلم: (٢٨١٨).

إثماً، فإذا كان إثماً كان أبعدَ النَّاس عنه ﷺ)[1]، والنُّصوص متواترة على هذه المعاني، ومنها قوله ﷺ: **(يَسِّروا ولا تُعسِّروا، وبشِّروا ولا تُنفِّروا)**[2]، بيد أنّ تحقيق هذه الغاية، لا يتمّ بمحض الأُمنيات، فلا بدّ من أن نبذل الجهد في سبيل تربية أنفسنا وأبنائنا على هذه المعاني، ولكننا بالمقابل ينبغي أن نحذر من الوقوع في وسطيَّة كاذبة، تدعو إلى الترخُّص في دين الله ﷻ، وتمييع أحكام الدِّين.

٢١. عدمُ مراعاةِ التدرُّج في تحقيق الأهداف، ومجافاةُ الحكمة والأناة:

هذا السببُ من أسباب الاضطراب في المنهج، مظهرٌ من مظاهر إهمال السُّنن الكونيَّة، وفي ذلك مجافاةٌ وأيُّ مجافاةٍ للقرآن الكريم وللسُّنة النبوية، حيث وردت كثيرٌ من النُّصوص الدالة على أنّ مراعاة السنن الكونية، مبدأ شرعيٌّ مقرّر، نرى مصداقه في السِّيرة النبوية، عندما نتأمّل في النُّقلة الهائلة التي حدثت ما بين مكة والمدينة، في ظرف ثلاثةِ

---

(١) رواه البخاري: (٣٥٦٠)، ورواه مسلم: (٢٣٢٧)، من حديث عَائِشَةَ رضي الله عنها أنها قالَتْ: ما خُيِّرَ رسولُ الله ﷺ بين أَمْرَيْنِ إلا أَخَذَ أَيسَرَهُما، ما لم يَكُنْ إِثْمًا، فَإِنْ كان إِثْمًا كان أَبْعَدَ النَّاسِ منهُ، وما انْتَقَمَ رسولُ الله ﷺ لِنَفْسِهِ إلا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ الله فَيَنْتَقِمَ لله بها.» وهذه رواية البخاري ».

(٢) رواه البخاري: (٦٩)، ورواه مسلم: (١٧٣٤)، من حديثِ أبي بُرْدَةَ عن أبيه عن جَدِّهِ قال: لـمَّا بَعَثَهُ رسول الله ﷺ، وَمُعَاذَ بن جَبَلٍ قال لَهُمَا: (يَسِّرَا ولا تُعَسِّرَا، وَبَشِّرَا ولا تُنَفِّرَا، وَتَطَاوَعَا. قال أبو مُوسَى: يا رَسُولَ الله، إِنَّا بِأَرْضٍ يُصْنَعُ فيها شَرَابٌ من الْعَسَلِ يُقَالُ له: الْبِتْعُ، وَشَرَابٌ من الشَّعِيرِ يُقَالُ له: الْمِزْرُ؟ فقال رسولُ الله ﷺ: (كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ). وهذه رواية البخاري.

وعشرين عاماً، قامت فيها دولةٌ على قاعدة الإيمان بالله ﷻ، ولنتأمَّلْ في المراحل التي مرَّ بها المسلمون، والعقبات التي واجهتهم، وكيف واجهها الرّسول ﷺ؟ وهل كان من الممكن أن يواجهها ويتغلّب عليها، ليُقيم دولة الإسلام، دون مراعاة السنن الكونية واحترامها؟

لنقرأ هذه المعاني، من خلال هذه القصة المعبّرة، وهي قصة عمر بن عبد العزيز الإمامِ العادل، مع ابنه عبد الملك، والذي كان عمره آنذاك تسعة عشر عاماً: فقد روي أنه دخل على أبيه ذات يوم؛ فقال له: يا أبتِ ما يمنعك أن تمضي لما تُريد من العدل؟ فوالله ما كنتُ أبالي لو غلت بي وبك القدور في ذلك؟ قال: «يا بُنيَّ، إنما أُروِّضُ النَّاس رياضةَ الصَّعْب، إنِّي لأُريد أن أُحْيِيَ الأمورَ من العدل، فأوفِّر ذلك حتى أُخرج معه طمعاً من طمع الدنيا، فينفِروا لهذا، ويسكنوا لهذه. ولو عمرت خمسين سنة لظننتُ أني لا أبلُغ فيهم كلَّ الذي أريد، فإن أعِشْ أبلُغْ حاجتي، وإن أنا مُتُّ فاللهُ أعلمُ بنيَّتي»[1].

وفي روايةٍ أخرى، أنّ عمر بن عبد العزيز قال لابنه: « أَيْ بُنيَّ، إِنَّك على حُسن قسم الله لَك، وفيك بعضُ رَأْي أهل الحداثة، وَالله مَا أَسْتَطِيعُ أَن أُخرج لَهُم شَيْئاً من الدِّين، إِلَّا وَمَعَهُ طرفٌ من الدُّنْيَا أستلينُ بِهِ قُلُوبهم، خوفًا أَن ينخرقَ عَليَّ مِنْهُم مَا لَا طَاقَة لي بِهِ»[2].

وفي روايةٍ أخرى، أنه قال لابنه: «لا تعجَلْ يا بُنيَّ، فإنَّ الله تعالى ذمَّ

(١) السنة، للمروزي: ص ٢٣، وتاريخ الخلفاء للسُّيوطي: ص ٢٣.

(٢) مناقب عمر بن عبد العزيز لابن الحكم: ص ٥٧.

الخمرَ في القرآن مرَّتينِ، وحرّمها في الثَّالثة، وأنا أخافُ أن أحملَ النَّاس على الحقِّ جملة، فيدفعوه، وتكونَ فتنة»[1].

هذا عمر بن عبد العزيز، الذي أقام العدل في الأرض، مدَّةَ سنتين وأشهر، يكشف عن مَعْلَمٍ مهمّ من معالم المنهج الذي اتّبعه، ألا وهو التدرج والحكمة والتأني، وذلك كلُّه من احترام السنن الكونيّة، ألا فلنحترِمْ هذه السّنن، ونلتزم بما تقتضيه من المبادئ، ولنتأمّلْ: أنَّ الله ﷻ قادرٌ على خلق السماوات والأرض بقول: «كُن»، وأنه قادر على إخراج كل مولود على نحو ما أخرج عيسى، بل آدم، بل الناقة، لكنها السنن الإلهيَّة في الكون!

٢٢. عدم اعتبار تغيُّر الأحوال والأماكن والأزمان المؤثرة في الحكم:

وقد مرَّ بنا في أسباب الاطِّراد مبدأُ اعتبارِ تغيّر الأحوال، والأماكن، والأزمان المؤثرة في مناط الحكم، فعدم اعتبار هذه المتغيّرات، هو بالمقابل سببٌ من أسباب الاضطراب، ومخالفةٌ لحكم الكتاب، ومن آثاره: إغلاقُ باب الاجتهاد، والتخوُّف من كلِّ جديد. وأهم من ذلك كله إنزال أحكام الله في غير مواضعها، وهذا من الجمود المذموم الذي تؤول حال صاحبه للاضطراب.

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه: [١/ ٣٩]، وذكرها الشاطبي في الموافقات دون إسناد: [٢/ ١٤٨].

٢٣. قلَّةُ الصبر، وعدمُ التحمُّل، واليأسُ، وسوءُ الظن بالله ﷻ:

من أجل تجنُّب هذا السبب، وما يحدثه من اضطرابٍ في المنهج، لتكن لنا في رسول الله ﷺ وصحابته أسوةٌ حسنةٌ، روى قَيْسُ بن خَبَّابِ بن الْأَرَتِّ، عن أبيه رضي الله عنه قال: (شَكَوْنَا إلى رسول الله ﷺ وهو مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً له في ظِلِّ الْكَعْبَةِ، قُلْنَا له: ألا تَسْتَنْصِرُ لنا، ألا تَدْعُو الله لنا؟ قال: «كان الرَّجل فِيمَنْ قَبْلَكُمْ، يُحْفَرُ له في الأرض، فَيُجْعَلُ فيه، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ، فَيُوضَعُ على رَأْسِهِ، فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وما يَصُدُّهُ ذلك عن دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ، ما دُونَ لَحْمِهِ من عَظْمٍ أو عَصَبٍ، وما يَصُدُّهُ ذلك عن دِينِهِ. والله لَيُتِمَّنَّ هذا الْأَمْرَ، حتى يَسِيرَ الرَّاكِبُ من صَنْعَاءَ إلى حَضْرَمَوْتَ، لا يَخَافُ إلا الله، أو الذِّئْبَ على غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ»)(١). ويُستفاد من هذا الحديث، أنّ الصبر من المعاني الكبيرة، التي ينبغي أن يتحلّى بها الداعية، ويؤكد ذلك أنّ الصبر قد ورد في تسعين موضعاً من القرآن الكريم، وذلك دليلٌ على أهميته: ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الروم].

٢٤. تعظيم الخوف من المخلوقين:

ويترتّب عليه تضخيم تهديد المخلوق، مع أن التهديد والوعيد والعداء متوقّع في طريق الدعوة، ولكن الذين يعظم في صدورهم شأن

(١) رواه البخاري (٣٦١٢).

المخلوقين، يخافون أن ينالهم منهم أدنى أذى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠]، ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ﴾ [الحج: ١١]، فلو أنّ هؤلاء أنزلوا الأمور منازلها، لما أصابهم الاضطرابُ جرّاء ذلك، لو أنهم استشعروا عظمة الله ﷻ، وأدركوا أن حقيقة تعظيمه تكون بتعظيم أمره ونهيه، لما لانوا ولا ضعفوا، ولا استكانوا، ولما أنشب الخوف من الدنيا فيهم مخالبه، ولكان حالهم كحال: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران].

٢٥. السقوط في مستنقع المعاصي والآثام:

موارد المعاصي مظلمة، فمن اقتحمها فلابد أن يتخبط، فنور الله لا يؤتى لعاصٍ! ولاسيما مع عدم تجديد التوبة النَّصوح، والغفلة عن الدعاء والاستغفار، وتأمل كيف هُدِيَ يوسفُ ورفع الله قدره لـمّا استعصم!

وإذا كان كل ابن آدم خطّاء، فالدواء في التوبة وكثرة الاستغفار والدعاء بأن يعافينا ربنا في الدنيا والدين. وفي أذكار الصباح والمساء من تلك الأدعية التي لها أثرها الطيب في صيانة المسلم جملةٌ مباركةٌ، فلنُحافظ على أذكار الصباح والمساء؛ ليحفظَنا اللهُ ﷻ، ولنُصغِ إلى الكلمات النبويةِ البليغة التي علّمها الرسول ﷺ ابنَ عبّاس رضي الله عنهما:

(يا غلام، إني أعلمك كلماتٍ: احفظِ اللهَ يحفظْكَ، احفظِ الله تجدْه تجاهك، إذا سألت فاسألِ الله، وإذا استعنت فاستعنْ بالله، واعلمْ أن الأُمَّة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضرُّوك بشيءٍ، لم يضرُّوك إلا بشيءٍ قد كتبه الله عليك، رُفِعَتِ الأقلامُ، وجفَّتِ الصحف)[1]. وهذا الحفظ الإلهيّ ليس قاصراً على الجسم والبدن؛ بل هو شاملٌ كذلك للعقيدة والمنهاج، فما أمسَّ حاجتَنا إلى هذا الحفظ الإلهيِّ في هذا الزمان، الذي صارت تموج فيه الفتنُ كموج البحر!

وبعد:

فهذه من أهمِّ أسباب الاضطراب، التي رأيتُها من خلال سبر واقع كثيرٍ من الدُّعاة، مع ما ورد في سير الأوَّلين، ممّن وقع في هذا البلاء العظيم، وبيان ذلك: هو سنَّة متّبعة من أجل النجاة والسلامة من هذا الدّاء، كما قال حذيفة رضي الله عنه: (كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر؛ مخافة أن يدركني)[2]. فلنتأمّل ما ذُكر، ولنكن منه على حذر، فالحيُّ لا تؤمَن عليه الفتنةُ، ومسكينٌ ذلك المغترُّ الذي يظن أن الخطاب بصيانة النفس من موارد الهلكة غير موجه إليه!

(١) رواه الترمذي في السنن: (٢٥١٦)، وصححه الألباني في المشكاة: (٥٣٠٢).

(٢) متفق عليه، البخاري: (٣٦٠٦)، ومسلم: (١٨٤٧).

الآثار العامّة والخاصّة للاضطراب في المنهاج

يصعب إحصاء الآثار السلبيّة العامّة والخاصّة للاضطراب في المنهاج، ويصعب رصد جميع مظاهرها، ولكن بحسب ما بلغه القارئ من فهم وإدراك لمقاصد هذا الكتاب المنهاجيّ، ستكفيه - بإذن الله - بعض الإشارات والتعليقات، فأقول:

من الآثار العامة والخاصّة للاضطراب في المنهاج:

١. أنه انحراف عن الصراط المستقيم:

وكفى بذلك من أثرٍ بالغ الخطورة، على حياة الإنسان ومصيره، في الدنيا والآخرة، وقد نهى الله تعالى عن اتِّباع غير منهاج أهل الحق، ومن الحيدة عنه، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، فالمضطربون متَّبعون للسُّبل، التي تفرقت بهم عن سبيله، ماذا لو أنّ مسافراً، كلّما رأى طريقاً ذات اليمين أو ذات اليسار، خرج عن خطِّ سيره ليتبعه، ألا يكون بذلك قد عرَّض نفسه ومن معه للانقطاع ونفاد الزاد؟ فكيف به إن وافاه الأجل المحتوم مضيِّعاً مقصِّراً.

إن العمر قصير لا يفي بإدراك الأمل، فلنجدَّ في السير على صراط مستقيم، ولنترك بنيات الطريق فإنهن مهالك، وفي الحديث الصحيح: خط النبي ﷺ خطاً مربعاً، وخط خطاً في الوسط خارجاً منه، وخط خططاً صغاراً إلى هذا الذي في الوسط من جانبه الذي في الوسط،

وقال: «هذا الإنسان، وهذا أجله محيط به، أو قد أحاط به، وهذا الذي هو خارج أمله، وهذه الخطط الصغار الأعراض، فإن أخطأه هذا نهشه هذا، وإن أخطأه هذا نهشه هذا»[1]، وحري بمن كان عمره لا يفي بأمله أن يجدَّ على صراط مستقيم، ليدرك ما يريد، ومن سار على الدرب وصل، ومن انقطع لعارض عذر، أما من تتبع الأعراض فقد أورد نفسه موارد الهلكة.

٢. أنه مُضيِّعٌ للجهود، مُبعثِرٌ للطاقات:

وهذه ثمرة بدهية للاضطراب في المنهج، فالدَّاعية المصاب بالاضطراب، يكون كالمنبتِّ لا أرضاً يقطعُ، ولا ظهراً يُبقي، يغزل اليوم غزلاً، وغداً أو بعد حين ينكثه! يدعو الشباب لباب، فإذا دخلوا نادى بإخراجهم! اليوم مشرِّق، وغداً مغرِّب! فمثل هذا مهما أحدث من الضجيج في كل فج وطريق فإن محصلة المجموع في النهاية تكون ضئيلة!

٣. أن فيه إثـارةَ لشماتة الأعـداء، وإحبـاطاً للمحبِّين والأصدقاء:

وقد يوقع صاحبه في دائرة اليأس، والقنوط، والعزلة، والانزواء، ولعلّنا نلحظ في بعض وسائل إعلامنا؛ أنها تجتهد في تصيُّد التناقضات بين بعض طلاب العلم، وتُبرزها شامتةً، بل مستثيرةً روحَ الشماتة في

(١) صحيح البخاري (٦٤١٧).

نفوس قرائها، الأمر الذي أحدث تأثيراً سلبيّاً، على بعض الأخيار الطيِّبين.

اطَّلعتُ على إحدى هذه الصحف، وقد أثارت موضوع الجهاد في العراق، وأتت بثُلّةٍ من كبار العلماء والدُّعاة، فاختلفت آراؤهم في ذلك، فمن قائلٍ: إنه جهادٌ، ومن قائلٍ: إنه فتنة! ومن شأن هذا الخلاف أن يُثير بلبلةً في وعي عامّة الناس، ويُحدث يأساً وقنوطاً لدى بعض الدُّعاة وطلاب العلم، تستغلُّه بعض وسائل الإعلام، كمادة إعلامية خصبة، للولوغ في أعراض العلماء وطلاب العلم، مستغلّين في ذلك مختلف الأساليب والوسائل، التي أتاحها لهم تطوّر التقنيّات الإعلامية المعاصرة، الأمر الذي يُحدث في النفس حسرةً وألماً.

٤. أنه يؤدّي لتفرق الكلمة، واختلاف القلوب، ونشوء العداوات:

يقولُ الله ﷻ: ﴿وَلَا تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦]. فالفشلُ وذهاب الريح ثمرة معتادة للتفرُّق والتنازع، والساحة الدعويّة الآن تُعاني أيّما معاناة، من هذه الآثار السلبيّة، وبخاصّةٍ بعد أن أصبح الاضطراب ظاهرةً لا شذوذاً.

٥. يَبُثَ الشُّعور بالحيرة، والحسرة، واليأس، في نفوس الأتباع والتَّلاميذ:

وخطورة هذا الأثر من آثار الاضطراب، أنه يُشيع في ساحة الدعوة هذه الرُّوح السلبية، التي قد تسري إلى آخرين من طلاب العلم، وقد

تمتدُّ إلى بعض المشايخ والمربّين، من ذوي المناهج الصحيحةِ، الأمر الذي يفقد الناس الثقةَ في الدعوة والدُّعاة، ويهدم ما بناه أئمة الدعوة والمجاهدون سنين طوالاً، بسبب ما يُرى من اضطراب بعض طلاب العلم، أو بعض الدُّعاة، ولا تقف موجة الشكِّ عند الناس، في حدود الذين اضطربوا، بل قد يتعدى الشكُّ فيتناول بعض المشايخ الذين ثبتوا، وبعض الدُّعاة من ذوي المناهج الصحيحة، خوفاً من أن يُقال: وما يدرينا أن يحدث لهم ما حدث للآخرين؟

٦. يوسِّع من دائرة المراء، والجدل، والخصومات بين الدُّعاة:

حقّاً لقد أضحى بعض الدُّعاة، شغلُهم الشاغل هو رفع راية الخصومة، في وجه غيرهم من الدُّعاة، الذين ربما تكون مناهجُهم منحرفة، ولكن هل يواجه الانحراف في المنهج بانحرافٍ مثله؟

ومن يدخل على بعض المواقع الإسلامية الدعويّة في الإنترنت، يرى إلى أيّ حدٍّ بلغت العداوة والخصومة بين بعض أهل الدعوة حتى خرجت ببعضهم إلى حد السبِّ والشتم والطعن، لا في المنافقين، أو العلمانيين، أو اليهود، أو النصارى، بل في إخوان الأمس! وبعض الخائضين في هذا مشايخ وطلاب علم، لقد شغلوا الأُمَّة أيّما شُغلٍ، وانحرفوا بقضاياها الكبرى، وبالتالي صار الطريق معبَّداً أمام شباب الأُمَّة -الذين لم يُتح لهم أن يسيروا في طريق الالتزام- أن يحثوا خطاهم نحو الإنترنت، والقنوات، والملاهي، فيا لله كم خسرت الأُمَّة بهذه الفُرقة بين العلماء والدُّعاة!

٧. يُضعف ثقةَ الناس في الدُّعاة، وطلاب العلم:

لقد رأينا فيما سبق، أنَّ هناك دلائل كثيرة، تشير إلى أنَّ سلوك بعض الدُّعاة، يدلُّ على أنّ قناعته بالمنهج لم تكن قناعةً صادقةً، ولم تستند إلى أصولٍ محرَّرة، الأمر الذي يدفعه إلى أن يُشكِّك في مواقفه، وفي تاريخه الدعويِّ كلِّه، وعندئذٍ فمن حقّ الناس أن يقولوا: وما يدرينا لعله بعد سنواتٍ، يَعدل عما هو عليه الآن، مثلما عدل عما كان عليه من قبل، وهكذا دواليك.

ولا يخفى حال دعاة وطلاب علم قد أصابهم الاضطراب في المنهج، نراهم الآن في بعض المقابلات والحوارات الإعلامية، يُقال لأحدهم: لقد تغيَّرتَ، فما يُنكر أنه قد تغيَّر، يقول: تبيَّن لي الحقُّ، ولا شكَّ أنَّ الواحد إذا تبين له الحق، يجب أن يرجعَ إليه، فالرُّجوع إلى الحقِّ فضيلة، لكن من حقّ الناس، والتلاميذ، والأتباع أن يتساءلوا ويقولوا: إنه كان قبل عقدٍ من السنين، أو عقدينِ، أو أكثر، يجزم بأنه على الحقِّ المبين! والآن يستدرك على تاريخه ومنهجه كلِّه، فيقول: كنت مخطئاً بالجملة! فما يُدرينا وما يدريهِ أنه بعد عشر سنواتٍ أخرى أو أكثر، سيلتفت وراءه ليرميَ نفسه كذلك بالخطأ والبعد عن المنهج الصحيح؟

ولبُّ القضيّة هو: أنه لم يبنِ موقفه الذي تراجع عنه، على أدلّة وبراهين صحيحة، وإلا فلا شكَّ أنَّ الرُّجوع إلى الحقِّ خيرٌ من التمادي في الباطل.

وكنت قد ذكرت، في سياقٍ سابق، ذلكَ الموقفَ، لما كنا عند

سماحة والدنا الشيخ عبد العزيز بن باز ﷺ، فسأله أحد المشايخ عمّا ينبغي أن يفعله، إذا جاءه أمرٌ من وليِّ الأمر بالتوقُّف عن الدُّروس والمحاضرات؟ فقال له الشيخ: توقّفْ! ولم يقنع بجواب الشيخ، فعاد إليه ليحدّثه مرة أخرى، فبيَّن له الشيخ الأسبابَ التي بنى عليها جوابه، وكان ممّا قاله الشيخ ابن باز، أنّ بعضهم إذا أُمِر بالتوقُّف، قد لا يستجيبُ لذلك إخلاصاً، أو حَمِيَّةً، وهذا طيّبٌ؛ إذا كان يُدركُ أبعاد موقفه جيّداً، وما يمكن أن يُصيبه من البلاء بسببه، وإذا كان يمتلك من قوّة الإيمان والصبر على ذلك. أما إن كان لا يملك من الصبر ما يكفي لتحمُّل هذا الموقف، فعندئذٍ يتراجع -بعد الثَّبات- عن موقفه كلّه، فيتراجع الناس من ورائه، وتتساقط المعاني والقيم التي كان يعلّمهم إيّاها! بينما لو توقف عند ذلك الحدّ مضطرّاً، منكراً بقلبه، لتوقف الناس عنده كذلك، ولبقي منهجه في نفوسهم حيّاً مؤثّراً، وذلك كلُّه من فقه الشيخ ابن باز، ﷺ، وغفر لنا وله ولسائر المسلمين.

٨. يجعلُ الدَّاعية عاجزاً عن التعامل السَليم مع الأحداث والمستجَدَّات:

لأنه يشغله بخصومات أخرى، والحال أنّ طبيعةَ الحياة متجدِّدةٌ، لا تتوقّف عن الحركة، وهم قد انشغلوا عنها، وتخلَّفوا عن ركبها، فأنّى لهم حسنُ التعامل معها! وكيف يمكنهم أن يُلاحقوا مستجدّاتها؟ بل تظل تتراكم أخطاؤهم وخطاياهم، إلى أن يستبدلهم الله بهم قوماً آخرين يُحبُّهم ويُحبُّونه.

٩. يدفع أعداء الدعوة وخصومها إلى الطمع في مزيد من التنازلات:

إذا وقع الاضطرابُ من طالب علم، أو داعية، طمع الأعداءُ فيه، وازدادت الضغوط عليه؛ رغبةً في أن يُقدِّم لهم مزيداً من التنازلات عن دينه، إذ يرونه في حال غيبوبةٍ عن فكرته وعن مبادئه. وإنه حقّاً لفي غيبوبةٍ، نتجت عن دخوله في باب التأويلات، وتوسُّعه في تطبيق قاعدة المصالح المرسلة، حتى صار يطرُق أبوابَ المصالح الموهومة، مُنصرفاً عن المصالح المعتبرة والمعلومة، هذا واقعٌ مشاهدٌ يدعو إلى العجب.

وسرُّ الأمر يكمن في تلك الهيبة التي يكسو اللهُ ﷻ بها صاحب الدعوة والعلم بسبب قربه من ميراث النبوة، فلا يتجاسر أحدٌ على النَّيل من رؤيته، ومن منهاجه، وإن نالوا من شخصه، لكن عندما يبدأ سُمُّ الاضطراب يسري في الجسد، عند ذلك يكِلُه الله إلى نفسه، ومن وكلَه الله إلى نفسه، فقد خاب وخسر، ووجدت فيه شياطينُ الجنِّ والإنس مطمعاً، وأيَّ مطمعٍ! فيجتاحُونه من كلِّ ناحيةٍ، وتنهال عليه الضُّغوط، فيبدأ في الانحدار والانهيار. وقد قال أحد حكماء العرب: المهزوم لا يردُّه شيءٌ! وصدق.

١٠. انتقال القيادة الحقيقية من أيدي العلماء إلى أيدي الجماهير:

العلماء هم أولو الأمر، وهذا هو الذي فهمه أئمة التفسير من السلف، من قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ﴾ [النساء: ٥٩]. فقالوا: هم الأمراء والعلماء، واستدلّ عليها أبو

العالية استدلالاً حسناً، عند قوله تعالى: ﴿ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ «قال: هم أهل العلم، ألا ترى أنه يقول: ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾ [النساء: ٨٣]؟ »(١)، والأمراء أيضاً داخلون في هذه الآية، ويكون لكلٍّ منهما عندئذٍ دورٌ مخصوص، وأمر يليه، وأمّا إذا كان الأمير عالماً، فتلك هي الدرجة العليا، حيث يجمع بين الحسنيين. فالعلماء من جملة أولي الأمر، الذين يسوسون الناس، ويوجهونهم بمقتضى شريعة الله ﷻ، وهم الموقِّعون عن ربِّ العالمين.

ومن أخطر آثار الاضطراب في المنهاج، كونه سبباً في انتقال القيادة من العلماء والدُّعاة، إلى الجماهير المعذورة بتركها لذلك المضطرب، الشاكّة في غيره، والأدهى والأمرُّ أن تنتقل القيادة إلى القوى المؤثِّرة في المجتمع، التي لا تُبالي بعقيدته، وقيمه، وثوابته، فعند حدوث الاضطراب في ساحة الدَّعوة، وترتُّب آثاره الخطيرة التي ذكرنا بعضها فيما سبق؛ تنتقل قيادة المجتمع إلى هؤلاء، وقد خاف النبيُّ ﷺ على أمّته من الأئمّة المضلّين.

١١. أنه سببٌ للخذلان وسوء الخاتمة:

الاضطراب في المنهج يكون في الغالب بدافع الطمع في بعض متاع الدنيا وشهواتها، وقد قال الرسول ﷺ: **(إنَّ الرَّجل ليعملُ بعملِ أهل الجنَّة فيما يرى النَّاس، وهو من أهل النَّار)** (٢). تأمّل في قوله ﷺ: (فيما

(١) تفسير الطبري: [٨/ ٥٠١].

(٢) متفق عليه، رواه البخاري: (٢٨٩٨)، رواه مسلم: (١١٢).

يرى النَّاس) فيكون ظاهرُ أحدهم علماً، ودعوةً، وجهاداً، بينما هو في الحقيقة من أهل النار، وذلك بالنظر إلى صدق النية والإخلاص، ولنا في الحديث التالي عبرةٌ:

ثبت في الصحيح: (أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ، الْتَقَى هُوَ وَالمشْرِكُونَ فَاقْتَتَلُوا، فَلَمَّا مَالَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى عَسْكَرِهِ، وَمَالَ الْآخَرُونَ إِلَى عَسْكَرِهِمْ، وَفِي أَصْحَابِ رَسُولِ الله ﷺ رَجُلٌ لَا يَدَعُ لَهُمْ شَاذَّةً، وَلَا فَاذَّةً، إِلَّا اتَّبَعَهَا يَضْرِبُهَا بِسَيْفِهِ، فَقِيلَ: مَا أَجْزَأَ مِنَّا الْيَوْمَ أَحَدٌ كَمَا أَجْزَأَ فُلَانٌ! فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: أَمَا إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ! فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: أَنَا صَاحِبُهُ، قَالَ: فَخَرَجَ مَعَهُ، كُلَّمَا وَقَفَ وَقَفَ مَعَهُ، وَإِذَا أَسْرَعَ أَسْرَعَ مَعَهُ، قَالَ: فَجُرِحَ الرَّجل جُرْحًا شَدِيدًا؛ فَاسْتَعْجَلَ الموتَ، فَوَضَعَ سَيْفَهُ بِالْأَرْضِ وَذُبَابَهُ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ، ثُمَّ تَحَامَلَ عَلَى سَيْفِهِ فَقَتَلَ نَفْسَهُ. فَخَرَجَ الرَّجل إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ الله! قَالَ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: الرَّجل الَّذِي ذَكَرْتَ آنِفًا أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ؛ فَأَعْظَمَ النَّاس ذَلِكَ؛ فَقُلْتُ: أَنَا لَكُمْ بِهِ، فَخَرَجْتُ فِي طَلَبِهِ، ثُمَّ جُرِحَ جُرْحًا شَدِيدًا، فَاسْتَعْجَلَ الموتَ، فَوَضَعَ نَصْلَ سَيْفِهِ فِي الْأَرْضِ، وَذُبَابَهُ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ، ثُمَّ تَحَامَلَ عَلَيْهِ فَقَتَلَ نَفْسَهُ؛ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ: إِنَّ الرَّجل لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجل لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ)(١).

فكان الصحابة - رضي الله عنهم - في نوعٍ من الحيرة لا في الحكم، لكن في السبب، وذلك للمفارقة بين ما شاهدوه من حسن بلاء هذا الرَّجل،

---

(١) البخاري (٢٨٩٨)، ومسلم (١١٢).

وما سمعوه من خبر الصَّادق المصدوق، ولا ريب أنهم لم يكونوا يشُكُّون في صدق ما قاله لهم الرسول ﷺ، لكنهم كانوا مأخوذين بحسن بلاء ذلك الرجل الذي (لَا يَدَعُ لَهُمْ شَاذَّةً وَلَا فَاذَّةً، إِلَّا اتَّبَعَهَا يَضْرِبُهَا بِسَيْفِهِ)، ويتعجّبون من أين يؤتَى مثلُ هذا المقاتلِ الصِّنديد! فتبرّع واحدٌ منهم ليتتبّعه وينظر ما تؤول إليه حاله، فلمّا انحاز كلٌّ من الجيشين إلى معسكره، رآه قد أثخنته جراحُه؛ فلم يصبر عليها فانتحر! ولا شكّ أنّ هذا يُشير إلى وجود خللٍ واضحٍ في منهاجه أدّى إلى سوء خاتمته، فسوء الخاتمة -والعياذ بالله- قد يلحقُ هذا المضطرب في المنهاج، وذلك بسبب إساءته إلى نفسه وإلى الدعوة، وإلى المدعوين الذين ضللّهم، وفي آخر سورة الأحزاب قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأحزاب]. ولا شكَّ أن العالم والداعية الذي له أتباعٌ، هو من جملة السادة والكبراء، فإذا وقع -والعياذ بالله- في الانحراف أو في الضلال، فسيُضِلُّ أمماً من الناس وراءه، ولذلك انتبه الإمام أحمد ﵀، هذا الإمام العظيم، انتبه إلى هذه القضية لـمّا قيل له: يا إمام، لماذا لا تتأوَّل؟ قال: انظر إلى من عند الباب، وهم طلاب العلم الذين يكتبون ما سيقوله الإمام أحمد[1]، يخشى أن يكون سبباً في ضلالهم، فثبت ذلك الثبات العظيم، فاستحقَّ مقام إمامة أهل السُّنَّة ﵀.

---

(١) سيرة الإمام أحمد: [١/ ٤٩-٥٢].

وليس ضرورياً أن يكون سوء الخاتمة، مكتوباً على من أدمن ارتكاب المعاصي الظاهرة أو جاهر بها، بل قد يختم لمن كان يعده الناس عالماً أو داعية بها!

تنبيهاتٌ مهمَّة

١. ينبغي التحقيقُ في دعوى الاضطراب عند الحديث عن رجوعِ عالم عن أخطاء وقع فيها:

رجوعُ العالم، أو الداعية عن أخطاءٍ وقع فيها، في أول مسيرة دعوته، واستبان له أنَّ الحق في غيرها، يُعد فضيلةً، ومزيَّة، وتكاملاً في المنهاج، فالرجوع إلى الحق خيرٌ من التمادي في الباطل، ولكن من المهمِّ أن يكون ذلك في أمرٍ واضحٍ بيِّن، بعد دراسةٍ وتمحيص، فاليقين لا يزول بالشكِّ، واصطحابُ الأصل ولزومُه هو الأصلُ، حتى يتبينَ أنَّ الحقَّ في غيره.

والحديث عن الاضطراب ليس عن إنسان وقع في أخطاءٍ، ورجع إلى الحقِّ، فليس هذا اضطراباً، إنما هذا اطِّراد في المنهاج، شريطة أن يثبت فعلاً أنه كان على خطأٍ، وأنَّ ما توصَّل إليه هو الحقُّ الذي يدور على النظر الشرعي في الأدلة.

٢. الوقوع في الأخطاء لا يُعدُّ اضطراباً في المنهج:

وقوع العالم والداعية في بعض الأخطاء، لا يعدُّ اضطراباً في المنهاج، ما لم تكن الأخطاء فرعاً عن تبدل في أصول منهاجه، فالله ﷻ أبى العصمةَ إلا لكتابه، ولنبيه، وما اجتمعت عليه الأُمَّة. والخطأ في الفروع لا يخلو منه أحد بعد الأنبياء، والمهم أن يكون لدى المخطئ استعداد للرُّجوع إلى الحقِّ، متى ما تبيَّن له، وكما ذكر شيخ الإسلام؛

أنَّ أخطاء العالِمِ تُغمر في بحر حسناته. ومن لطيف ما ذكره كذلك؛ أنَّ أخطاء العالم كالجبال، وحسناتُه كالليل، يأتي فيُغطِّيها فلا ترى جبلاً. ومن هنا يجب التماس الأعذار للعلماء الذين عُرفوا بسلامة المنهاج، كما قرر شيخ الإسلام في «رفع الملام عن الأئمَّة الأعلام»، و «لو قُدِّر أنَّ العالمَ الكثيرَ الفتاوى أخطأ في مئة مسألة، لم يكن ذلك عيباً»[1]، فكفى بالمرء نبلاً أن تُعدَّ معايبه. ولهذا نجد في عبارات الحفَّاظ المتأخِّرين، كالذهبي، وابن القيِّم، وابن حجر، وغيرهم، أنهم عند الحديث عن بعض المحدِّثين المكثرين في الرواية، ممّن صدرت عنهم بعض الأخطاء، يقولون مثلاً: كان ثقةً كثيرَ الحفظ، أو كان ثقة كثير الحديث له غرائب وأفراد مغمورة في سعة ما روى. ولهذا يجب أن ننتبه لهذا المدرك، فوقوع العالم، أو الداعية، في أخطاء محدَّدة، لا يُعدُّ اضطراباً، ما دامت هذه الأخطاء في فروع جراء أسباب معقولة، إما اجتهادية أو عن تأويل، بل حتى لو كان ذلك ذنباً، لكنه لا يصر عليه.

٣. التغيُّر في حدّ ذاته ليس مذموماً:

بعضُ التغيُّرِ يكون إلى الأحسن، وبعض التغيُّر يكون إلى الأسوأ، فعندما يُقال: إنّ فلاناً قد تغيَّر! فينبغي أن نستفصل: ما المقصود بالتغيُّر؟ قد يكون تغيّر، فازداد علمُه، واتَّسع أفقُه، كأن يكونَ عالماً من علماء المذاهب، يأخذُ بروايةٍ واحدة من روايات المذهب، ثم توسَّع علمُه فصار يأخذ ويرجِّح، وقد لا يلتزم بالمذهب، فهذا لا يُقال

(١) مجموع الفتاوى، لابن تيمية: [٢٧/ ٣٠١].

عنه: إنه تغيّر بالمعنى السلبيّ، فينبغي أن يحدد مدلول التغيّر، ولابد من تقييمه، وتقويمه، بالنظر إلى ظروف الزمان والمكان، وملابساتهما المختلفة، فلا ينبغي أن نتعجَّل في الحكم على الأشخاص بالاضطراب جراء كل تغير! فليس كل من تغيّر قد ضلَّ سواء السبيل.

٤. المجتمعات تختلف، بل كلُّ مرحلةٍ من مراحل المجتمع قد تتميّز عن غيرها:

إنَّ طريقة الدعوة ووسائلها قد تختلف من مرحلة إلى أخرى، كما اختلف العهد المكيُّ عن العهد المدنيّ، والعمل في دول الكفر يختلف عن العمل في ديار الإسلام، وهذا الاختلاف لا يلغي وجود التشابه بين مجتمعات، ومراحل أخرى، بل قد يكون التشابه تشابُهاً كليّاً، أو أغلبيّاً، أو نسبياً، فلكلِّ مرحلةٍ ما يُناسبها، وما قد يبدو لبعض الناس اضطراباً، قد يكون هو الاطِّراد عينُه، لكنّ الأحوال اختلفت، أو المجتمعات تغيرت بما يوجب تغيراً في طريقة الأداء أو وسائل الدعوة أو خطابها، والفطنة لسبب التغير ومعرفة الأسباب تساعد في الحكم عليه، ومن جهل فعليه بوصية الله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [النحل].

٥. أهميَّة دراسة مراحل الدعوة في كلٍّ من العهدين المكيّ والمدنيّ:

سألت سماحة الوالد الشيخ عبد العزيز بن باز ﷺ، في مجلسٍ ضمَّ عدداً من المشايخ، فقلت له: يا شيخ، هل يجوز لنا أن نأخذ ببعض

الأحكام التي كانت في العهد المكي، إذا كان في عصرنا ما يُشابهها؟ قال: نعم في الأمور التي يجوز الأخذ بها[1].

فالرُّجوع إلى أحكام بعض المسائل، في العهد المكي لا يُعدُّ تراجعاً أو اضطراباً في كل الأحوال، فمسائل الجهاد -على سبيل المثال- في عصور الاستضعاف، تختلف بعض أحكامها عن مسائل الجهاد في عصور التمكين والقوة.

لكن في المقابل هناك قضايا تبقى ثابتةً لا تتغير، مهما تغيَّرت العصور، فعلى سبيل المثل: لا بدَّ من أداء الصلاة ما دام القلبُ حاضراً، فليس جائزاً في ذلك دعوى الرجوع إلى العهد المكي، لنُصلِّي الظُّهر ركعتين إلا في السَّفر، أو الخوف مثلاً!

ومما له ذيل بما قد يتغير جرّاء الاستضعاف، وله شقان: قول كلمة الكفر لمن أُكرِه، وقلبه مطمئنٌّ بالإيمان، فقول كلمة الكفر جائز في حقه، لكن عمل القلب ممّا لا يمكن التنازل، أو الرجوع عنه.

وقد قال رسول الله ﷺ للصحابة - رضي الله عنهم - فيما رواه حذيفة: (**إِنَّكُمْ لَا تَدْرُونَ لَعَلَّكُمْ أَنْ تُبْتَلَوْا**)، قالَ حُذيفةُ: (فَابْتُلِينَا، حَتَّى جَعَلَ الرَّجل مِنَّا لَا يُصَلِّي إِلَّا سِرًّا)[2]، وهذا كله راجع للعلم بمناطات الأحكام، وينبغي أن يصدر في هذا عن رأي العلماء الراسخين.

---

(١) كان ذلك في مجلسنا الشهري مع سماحته، في آخر أربعاء من كل شهر، والذي استمرّ انعقاده منذ نهاية عام ١٤١١هـ، وإلى شهر رمضان من عام ١٤١٥هـ.

(٢) رواه مسلم: (١٤٩).

٦. إيضاحُ المنهج وبيانُه قد يقتضي الحديثَ عن الأشخاص:

فقد يصعب أن نتكلم عن المنهج، دون ربطه بالأشخاص الذين يحملونه، وأولئك الذين نكلوا عنه، تأمّل في قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب]. فانظر كيف تجسّد المنهاج في رجالٍ، ولكن يجب أن ينضبط الكلام عن الرجال، بضوابط العدل، والرّحمة، والإحسان، والصِّدق.

٧. خطورة الإسقاط:

أعني بالإسقاط ميلَ بعضهم إلى جعل القضايا قضايا شخصية بدون مُسوِّغ، فما نذكره في سياق هذا الكتاب هو في المقام الأول أحاديثُ في المنهاج، وليس مستبعداً أن ينطبق الكلامُ في بعض المواضع، على بعض الأشخاص، بيد أنّ ذلك لم يكن مقصدَنا، مع وعيِنا وقناعتِنا بأنّ قضايا المنهاج لا تنفصل عن الأشخاص، أو الجماعات ومناهجها، ولكن ذلك كان سيستلزم منا كثيراً من الدراسة والجهد، في رصد أقوالهم ونقدها، فلذا اكتفيتُ بالنماذج العامّة، التي يصدق كلُّ نموذجٍ منها على عددٍ من الأشخاص، وقد سألني سائل فقال: هل تقصد فلاناً أو فلاناً بكلامك في الاضطراب؟

فقلت: أنا لا أقصد أحداً بعينه، وإنما حالي كحال من يُفصّل ثوباً، فمن كان على مقاسه فليلبسه!

أمَّا من ليس على مقاسه فليدعه، لسنا نتكلم عن أشخاص، وليست قضيتنا أن نتكلم عن أشخاص.

٨. احذروا من تحطيم القدوات.

وذلك بالتركيز على أخطائهم، وحملها على أسوأ المحامل، وواقعُنا مع كل أسف فيه كثير من ذلك، فهناك أناسٌ تخصَّصوا في تحطيم القدوات، عن طريق ترصُّد أخطائهم وزَلّاتهم، وحملها على أسوأ المحامل، ثم بعد ذلك يردُّون عليهم، في سلوكٍ مجافٍ لمنهج النقد العلمي، وكذلك مجافٍ للخُلق الإسلاميّ الرفيع.

لقد تصدَّت هذه الفئة للكلام، في علماء ودعاة، عُرفوا بحسن السِّيرة والسَّريرة وسلامة المنهاج، هكذا نحسبهم، والله حسيبهم، وليسوا بمعصومين، فوقعوا في بعض المسائل التي شنّع عليهم بها هؤلاء، وأغلظوا لهم في القول، حتى كاد بعضُهم أن يُكفِّر بعضَ هؤلاء، ولم يمرّ على هذا الحدث أكثرُ من سنتين، إلا وقد ابتُلي هؤلاء المُشنِّعون على رؤوس الملأ، فاللهمَّ لا شماتة! «ولحوم العلماء مسمومة، وسنة الله في منتقصهم معلومة»[١].

إننا كما نحذِّر من الغلوِّ في الرُّموز، كذلك نحذِّر من تحطيم القُدُوات، فالأُمَّة بعلمائها ودعاتها وقادتها، وهؤلاء ليسوا بمعصومين.

---

(١) انظر رسالة المؤلف: (لحوم العلماء مسمومة) التي قرَّظها سماحة العلامة ابن باز ﷺ.

٩. حساسيّة الحديث عن الشخصيّات:

الحديث عن الشخصيَّات، ينبغي أن يوزن عند الهمِّ فيه، بميزانٍ دقيق، ليس انطلاقاً من حرمة عرض ابن آدم مطلَقاً من أن يُنال منه فقط، وليس بناءً على ما للمسلم على أخيه المسلم من واجب النصيحة، وحسن الظنّ، وعدم ترصُّد أخطائه وعيوبه، بل حتى لو كان النقد قائماً على أساس المنهاج العلميّ، فإنّ منطق الدعوة والداعية، ينبغي أن يستند إلى فقه الموازنة بين المصالح والمفاسد، على الخصوص إذا كان لتلك الشخصية أتباع ومريدون لا يرضَون فيه قالة قائل، أو له من عشيرته، وأسرته، من يتعصبون له.

ولنا في أسلوب معاملة النبي ﷺ للمنافقين عبرة ومنهاجٌ، والمنافقون -لا شكّ- أشدُّ خطورةً من هؤلاء، فهؤلاء طلاب علم، وعلماء، ودعاة، إن أخطؤوا، وإن اضطربوا، بل وإن حادوا عن السنة، إلا أنهم يبقَون ضمن الصفّ المؤيِّد للإصلاح، وفقاً للشريعة الإسلامية، قد يكون عندهم من ضروب الخلل المنهاجيّ، ولكن يبقَون أخفَّ وطأةً من المنافقين، بل قد يكونون معنا في جبهة واحدة ضد أولئك في كثير من الأحيان، وإذا تأملت في المعاملة الشرعية للمنافقين وهم منافقون، تجد:

أولاً: لم يرِد اسمُ منافق واحد في القرآن الكريم.

ثانياً: القرآن والسنة أعليا من شأن القيم: الإيمان، العمل الصالح، العدل،... إلخ، كما نوّها، واحتفيا بالصِّفات: مؤمن، مسلم، متّقٍ، مقسط،... إلخ.

ثالثاً: بل: لما أراد بعضُ الصحابة، أن يوقع العقابَ على بعض هؤلاء المنافقين، الذين كادوا أن يُحدثوا فتنة في جماعة المسلمين، رفض النبي ﷺ.

وبدلاً من كلّ ذلك؛ رأينا حمْلةً موجَّهةً لا إلى أشخاص المنافقين في المقام الأول، ولكن إلى منهاجهم، ولعلَّ عليّاً ﷺ، لما قال الكلمة الذائعة المنسوبة إليه: «اعرفِ الحقَّ تعرفْ أهله»؛ كان يعني هذه المعاني، فعندما يعرف الناس الحقَّ؛ ينحازون تلقائيّاً إلى أهله، وكذلك بالمقابل: عندما يعرفون الباطلَ وصفاته، يميلون عنه ليبحثوا عن الحقِّ وأهله.

فبدلاً من أن توجِّه نقدك المباشر إلى الأشخاص، فتثير المشكلات، حريٌّ بك أن توجه نقدك إلى المنهاج، على أن يكون نقداً علميّاً، بميزانٍ دقيقٍ، فهذا يتناول كل من سلك ذلك السبيل المنحرف.

أما عندما يمارس الداعية النقص والنقض بدلاً من النقد، وعندما يوجه سهامه إلى الأشخاص بدلاً من المنهاج، فستستحيل القضايا المنهاجية الكبيرة -في الغالب- إلى معارك شخصيّة، وتحوَّل القيم والأهداف الدعوية إلى مكاسب شخصيّة معنويّة من أجل إثبات الذات، أو مادية من أجل بعض متاع الحياة الدنيا.

إنّ الاهتمام (بالنقد العلميّ للمنهاج) لا (بالأشخاص)، إن لم يؤدِّ إلى تراجع هؤلاء الأشخاص عن مناهجهم الخاطئة، فسيؤدي عاجلاً، أو آجلاً إلى سقوطهم، بعد سقوط مناهجهم، أما العكس فلا.

ودعونا نقف عند قصة عبد الله بن أُبيٍّ رأس النِّفاق، ومُثير الفتن

في الصَّفِّ المسلم، وقد بلغ أذاه بالنّبيّ ﷺ قمّته، عند رجوع المسلمين من إحدى الغزوات، عندما قال: (أَمَا وَاللهِ، لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى المدِينَةِ؛ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ! فَبَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَامَ عُمَرُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ! فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **دَعْهُ، لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ**)[1].

وكان أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ، قد لقي النَّبيّ ﷺ «فَحَيَّاهُ بِتَحِيَّةِ النُّبُوَّةِ، وَسَلَّمَ عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ، وَاللهِ لَقَدْ رُحْتَ فِي سَاعَةٍ مُنْكَرَةٍ، مَا كُنْتَ تَرُوحُ فِي مِثْلِهَا، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ: أَوَ مَا بَلَغَكَ مَا قَالَ صَاحِبُكُمْ؟ قَالَ: وَأَيُّ صَاحِبٍ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ، قَالَ: وَمَا قَالَ؟ قَالَ: زَعَمَ أَنَّهُ إِنْ رَجَعَ إِلَى المدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ، قَالَ: فَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ، وَاللهِ تُخْرِجُهُ مِنْهَا إِنْ شِئْتَ، هُوَ وَاللهِ الذَّلِيلُ، وَأَنْتَ الْعَزِيزُ، ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، ارْفُقْ بِهِ، فواللهِ لَقَدْ جَاءَنَا اللهُ بِكَ، وَإِنَّ قَوْمَهُ لَيَنْظِمُونَ لَهُ الْخَرَزَ لِيُتَوِّجُوهُ، فَإِنَّهُ لَيَرَى أَنَّكَ قَدْ اسْتَلَبْتَهُ مُلْكًا)[2].

وجاء عبد الله بن عبد الله بن أبيّ للرّسول ﷺ، وقال له: (يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّكَ تُرِيدُ قَتْلَ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ، فِيمَا بَلَغَكَ عَنْهُ، فَإِنْ كُنْتُ لَا بُدَّ فَاعِلًا؛ فَمُرْنِي بِهِ، فَأَنَا أَحْمِلُ إِلَيْكَ رَأْسَه، فواللهِ لَقَدْ عَلِمَتِ الْخَزْرَجُ، مَا كَانَ لَهَا مِنْ رَجُلٍ أَبَرَّ بِوَالِدِهِ مِنِّي، وَإِنِّي أَخْشَى أَنْ تَأْمُرَ بِهِ غَيْرِي، فَيَقْتُلَهُ، فَلَا تَدَعُنِي نَفْسِي، أَنْظُرُ إِلَى قَاتِلِ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ، يَمْشِي

---

(١) متفق عليه، البخاري: (٤٩٠٥)، ومسلم: (٢٥٨٤).

(٢) السيرة النبوية، لابن هشام: [٤/ ٢٥٥]، ودلائل النبوة، للبيهقي: [٤/ ٥٣].

فِي النَّاس، فَأَقْتُلَهُ، فَأَقْتُلَ رَجُلًا مُؤْمِنًا بِكَافِرٍ، فَأَدْخُلَ النَّارَ! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: بَلْ نَتَرَفَّقُ بِهِ، وَنُحْسِنُ صُحْبَتَهُ مَا بَقِيَ مَعَنَا)(١).

الشاهد من هذه المشاهد أنّ أذى عبد الله بن أُبيّ للرّسول ﷺ كان قد بلغ غايته، حتى نصح بعض الصحابة الرّسول ﷺ بقتله، لكن قال الرّسول ﷺ: (بَلْ نَتَرَفَّقُ بِهِ، وَنُحْسِنُ صُحْبَتَهُ مَا بَقِيَ مَعَنَا).

وقد كان لهذه المعاملة الطَّيبة أثرُها الإيجابيّ في موقف الأنصار عامّةً من عبد الله بن أبيّ، فقد صاروا بعد ذلك: (إِذَا أَحْدَثَ الْحَدَثَ كَانَ قَوْمُهُ هُمُ الَّذِينَ يُعَاتِبُونَهُ، وَيَأْخُذُونَهُ، وَيُعَنِّفُونَهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، حِينَ بَلَغَهُ ذَلِكَ مِنْ شَأْنِهِمْ: كَيْفَ تَرَى يَا عُمَرُ؟ أَمَا وَاللهِ لَوْ قَتَلْتُهُ يَوْمَ قُلْتَ لِي: اقْتُلْهُ، لَأُرْعِدَتْ لَهُ آنُفٌ، لَوْ أَمَرْتهَا الْيَوْمَ بِقَتْلِهِ لَقَتَلَتْهُ. قَالَ: قَالَ عُمَرُ: قَدْ وَاللهِ عَلِمْتُ لَأَمْرُ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَعْظَمُ بَرَكَةً مِنْ أَمْرِي)(٢).

إذن، فلنتّبعْ سبيل محمد ﷺ، ونُركِّزْ على الصِّفات والمنهاج، ولندع الأسماء والأشخاص، فهذه طريقة كثيرٍ من علمائنا، وكبار مشايخنا.

والخلاصة: اشتغل بنقد الأخطاء، ولا تشغل نفسك كثيراً بالحكم على المعين، فهذا أنفع وأجدى، ما لم يأت المخطئ بما يوجب إظهار البراءة منه. وكل مَن كان خطؤه ناشئاً عن انحراف سَهْلٍ، تأكّد إغفالُ نقد شخصه. وقد كان بعضهم يتحرى ترك التعريض حتى إذا سُئل

(١) سيرة ابن هشام: [٢/ ٢٩٣].

(٢) المرجع السابق.

عن مسألة فقهيّة، أشار فيها السائل إلى أنه قد استفتى في هذه المسألة الشيخ الفلانيّ؛ فإنه عندئذٍ يُمسك عن الجواب، إن كان سيُفهم من كلامه، أنه إنما يرُدُّ على ذلك الشيخ، وربّما تحيَّن وقتاً آخر مناسباً للردِّ على تلك المسألة، وبيان وجه الحقّ فيها، إن كان يرى أن مذهبَ ذلك الشيخ الفلاني فيها مخطئ، وينبغي تصحيحه.

والأصل أنه ليس ثمة مانعٌ من الردِّ على المخطئ، بل يشرع ذلك، عالماً كان، أو طالب علمٍ، أو داعيةً، شريطة أن يكون ردّاً علميّاً، متأدِّباً فيه بآداب أهل العلم.

غير أني لا أنصح طلاب العلم أن يشغلوا أنفسهم بالردود، بل عليهم بناء أنفسهم، أما هذه الردود، فينبغي أن يقوم بها علماء راسخون في العلم، أو طلبة علم منتهون، يُقدّرون المصالح والمفاسد، ويعرفون ما ينبغي أن يُقال، وكيف؟ ومتى؟

وأذكر بهذه المناسبة أن أحد الدعاة البارزين، وقع في أخطاء عقديَّة ومنهاجيَّة، ومن ذلك أنه ألّف مؤلَّفاً، ينتقد فيه الملتزمين بمنهاج السلف من أتباع دعوة الشيخ الجليل محمد بن عبد الوهاب ﷺ وأجزل له المثوبة، وهذا المؤلِّف، رغم زعمه بأنه ينصر سنَّة المصطفى ﷺ، إلا أنّ كلامه لم يخلُ من القدح في السّنة المطهرة، وأغلب الظنّ أنه لم يُرِدْ ذلك، وإن كان قد وقع فيه، من خلال عباراته الشديدة التي وجهها إلى الملتزمين بالسنَّة، وقد بادر إلى الردِّ على كتابه ذاك، بعضُ العلماء، وطلبة العلم.

هذا العالم الداعية عفا الله عنا وعنه، جاء يوماً إلى الشيخ عبد العزيز ابن باز زائراً، وكان بعضُ الناس يتوقَّعون أنَّ الشيخ ابن باز ربما يرفض استقباله، أو يستقبله استقبالاً فاتراً، ولكنْ خلافاً لما هو متوقع، نهض الشيخ ابن باز لاستقباله، وهشَّ له وبشَّ، وأكرمه وضيَّفه، ثمّ قال له: يا شيخ فلان، إنّ آثارَك وجهودَك، وسابقتَك في العلم والدعوة لا تُنكر، ونسأل الله أن يُثيبك عليها، وبدأ يثني عليه، ثم قال له: ولكن وقعت في بعض الأخطاء، ممّا نأمل أن تتداركه، وذكر له بعض هذه الأخطاء، فلمّا فرغ منها، لم يملك ذلك الداعية؛ إلا أن يُعبِّر عن تقديره لما وجّهه إليه الشيخ ابن باز، من نصيحةٍ وتنبيهٍ ونقدٍ، ووعد أنه -بإذن الله- سيُراجع موقفه من هذه القضايا التي خاض فيها، ومن فرط تأثُّره بالأسلوب الدعويّ الحكيم للشيخ ابن باز ﷺ، أنه كان مدعوّاً للغداء عند بعض الأفاضل؛ فنسي ذلك وتغدّى عند الشيخ ابن باز، ولم يُلبِّ دعوة من دعاه إلى الغداء إلا بعد أذان العصر، فلمّا سألوه قال: كنت في شأنٍ، وأنتم في شأنٍ آخر، كنتُ مع إمامٍ عالمٍ ناصحٍ صادقٍ رحيم.

مع أن المقام مقام تقويم وليس مقام نقدٍ منهجيٍّ، فليس من اللازم ذكرُ الفضائل، في حالة ما إذا كنتَ تَرُدّ على بعض ما صدر عن ذلك الشخص من أقوال، أو تُحذِّر من بعض كتبه، أو مقالاته، ولو كان ذلك مقروناً بذكره.

أمّا إن كنت تُقيِّمُ الشخص، فالعدل يقتضي أن تذكر ما له من

حسنات، وما عليه من سيئات، والظلم عاقبته وبيلة يوم توضع الموازين! قال الله تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾[الأنبياء]. تأمّل قوله تعالى: ﴿ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ ﴾، وتأمّل في مدى الظُّلم الذي يوقعه الإنسانُ بنفسه، لـمّا يجور على الآخرين ويظلمهم، ويغمطهم حقوقهم، ويبخسهم أشياءهم.

فهذا النموذج يؤكد ضرورة الإنصاف والعدل والرفق، وأنها مطالب شرعيّة، أمر الله بها. وأما الاعتداء فممنوع حتى مع المشركين الذين أشركوا وأخرجوا النبي ﷺ من مكة، وصدُّوه وصحابتَه عن المسجد الحـرام، فقال لهم الله تعالى: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ ﴾ [المائدة: ٢].

ومع الأسف الشديد فإنّ ردود بعض الإخوة المتحمِّسين، على بعض الأشخاص، كانت بعيدةً عن قيمة العدل، الذي قامت به السماوات والأرض، حيث أغفلت كلَّ فضيلة!

إنّ الخلاف شرٌّ، ومعالجة أخطاء العلماء والدعاة، له منهاج ينبغي أن يُتبَع(١)، تُراعى فيه المصالح والمفاسد، والغريب في الأمر، أنَّك لا تجد بين بعض العلمانيّين في أجهزة الإعلام خلافات منشورة، وليس ذلك إلا لأنهم يتجنّبون إظهارَ ما بينهم من خلافٍ للآخرين، وكما قال

(١) يُراجع كتاب: (لحوم العلماء مسمومة)، للمؤلف.

الله عن اليهود: ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾ [الحشر: ١٤]، فتجد أحزابهم رغم ما بينها من الفرقةِ والشَّتات، تجتهد في إبراز معاني الوحدة والائتلاف أمام الناس، فهذا من معنى قوله تعالى: ﴿ تَحْسَبُهُمْ ﴾، معنىً له رصيدٌ من الواقع، وبالمقابل تجد في جماعات الدعوة الإسلامية، من يقعُ في أعراض العلماء والدعاة علانيةً، لأمور اجتهاديَّة أو ظنيَّة! ونحن أولى من أولئك وهؤلاء، لأنّ ديننا ينهانا عن الفرقة: ﴿ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ [الأنفال: ٤٦]، ويحضُّنا على الوحدة: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

١٠. قولنا عن أحد الأئمّة والعلماء أنه صحيحُ المنهج لا يعني العصمة:

إنَّ الإمامة لا تعني العصمة، فليس هناك معصومٌ بعد رسول الله ﷺ، وكلٌّ يؤخذ من قوله ويُردُّ إلا محمداً ﷺ، فعندما نصف عالماً، أو داعيةً، بأنه سليمُ المنهاج، فليس معنى ذلك التَّزكية المطلقة لكل أقواله وأفعاله. هذا الكلام أقوله لبعض الناس ممّن يقول لي: لماذا تأخذ بقول الشيخ عبدالعزيز بن باز، أو الشيخ محمد بن صالح العثيمين، أو الشيخ محمد ناصر الدين الألبانيّ - رحمه الله - في بعض الأحوال، ولا تأخذ به في أحوالٍ أخرى؟ فأقول: سبحان الله! هؤلاء أئمّة، ولكن الإمامة والتَّزكية لا تعني العصمة، بل كما قال الإمامُ مالك: «كلٌّ يؤخذ من قوله ويُرَدُّ؛ إلا صاحبَ هذا القبر»[1]؛ يقصد محمداً ﷺ، وقد خلط

(١) الموطأ، للإمام مالك: [١/ ٢٥١].

الناس في ذلك، واستعظموا أن يُخطّأ عالمٌ شُهِد له بالعلم والإمامة، وهنا منشأ التعصُّب.

وسأذكر لكم موقفاً مرّ بي في عام ١٤١٣هـ، في أحد الدروس، وكنت في شرح: كتاب (منار السبيل)، قد التزمتُ بأقوال الشيخ الألبانيّ ﷺ في: (إرواء الغليل)، فإذا قلت: إنّ الحديث صحيح، أو حسنٌ، كان المقصود أنّ هذا هو حكم الشيخ الألباني، في (إرواء الغليل)، وقد ألزمت نفسي به، وقد أذكر في بعض الأحيان -بعد دراستي للحديث- حكماً مخالفاً للحكم الذي قرّره الشيخ الألبانيُّ، وهو أمر نادر، ورغم ذلك فوجئتُ يوماً من الأيام برسالةٍ من عدَّة صفحاتٍ، مكتوبةٍ باللون الأحمر، يقول لي فيها صاحبُها مشنِّعاً: ومن أنت حتى تتعقَّبَ الشيخ الألباني؟ فرددتُ عليه قائلاً: أما قولك من أنا؟ فوالله قد صدقتَ، فأنا أعرف نفسي، وأعرف قدري، وقد لا يكون هذا جهدي، إنما هو بحثٌ قمتُ به مع طلاب العلم والمتخصِّصين في علم الحديث، ولستُ من أهل هذا العلم، لكنَّني أسألك: يا أخي الكريم، لِمَ لمْ تستنكر عليَّ، وأنا أُردّد مراراً أنّ ابن حجر قال كذا، ولكن الألباني تعقَّبه، وقال التِّرمذيُّ كذا، وقال الشيخ الألباني: لا، في ذلك كلِّه لم تعترض، ثمَّ لما وُجدَ من يتعقب الألبانيَّ شنّعتَ عليه!

أذكر أني التقيت مرّةً بطلاب مدرسة دعوية، كانوا على منهج طيب، وكنت أسمعهم كثيراً ما يؤكّدون على نبذ التعصُّب، وأنه لا يجوز، وكنت أشعر بأنّ واقعَهم غيرُ ذلك، والتقيت مع واحدٍ من

أبرزهم، فقلت له مداعباً: إنِّي أحمد لكم، أنّكم أكثرُ من يركِّز على ذمِّ التعصُّب. قال: صحيح. قلت له: لكنني أعرفكم من أشدِّ النَّاس تعصُّباً لمشايخكم وعلمائكم. قال: صدقتَ، وما خَفِي عنك أعظم!

وما ذاك إلا لكون نبذ التعصُّب يحتاج إلى إنصاف وعدل وتوازن، وإنها لكبيرة إلا على أصحاب النفوس العالية والهمم الرفيعة! فاجتهد أخا الإسلام في اتِّباع الملة والمنهاج، واترك التعصُّب للأشخاص، وليكن نصبَ عينيك قولُ ربك سبحانه: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [النحل: ١٢٣]، ﴿ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾ [لقمان: ١٥]، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام: ٩٠]، فالعبرة بالملَّة والسبيل والهدى لا الأشخاص وإن جلَّت منزلتهم، والله المستعان!

١١. إنَّ الله ناصرٌ دينَه:

فما ينبغي أن ييأس المؤمنون الصادقون، ولو رأوا اضطراباً، ولو رأوا خللاً وتراجعاً، وليُحسِنوا الظنَّ بالله ﷻ دوماً، ولنذكر قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا ﴾ [يوسف: ١١٠]، وأمّا من ضلَّ ﴿ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ [الإسراء: ١٥]، أي على نفسه، وتكون عاقبتُه ما ذكره الله ﷻ في قوله تعالى: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾ ﴾ [محمد].

كيف نتعامل مع من اضطرب منهاجه؟

أولاً: ينبغي أن نتثبت: أحقًا قد اضطرب منهجاه، وتغيّر تغيُّراً سلبيًاً أم لا؟

التقيت مرّةً ببعض الأخيار من طلاب العلم، فأبلغوني بأنّ فلاناً قد تغيّر منهجه، فقلت: سبحان الله! ثمّ قدّر الله أن نلتقي مرّةً أخرى، وكان ذلك الشخص حاضراً، فقلت لهم: ها هو دونكم، فتحدَّثوا معه! فما هي إلا لحظاتٌ حتى أسكتهم بالحقّ، وبيّن لهم أنهم لم يكن معهم سوى الظُّنون، وأشياء لها محامل غير المحمل الذي آخذوه عليه، فينبغي علينا التثبُّت إذن، عندما يبلغنا ما نكره من قولٍ، أو مسلكٍ منسوب لأحد إخواننا، أو لأيّ أحدٍ من الناس، فعلينا أن نجتهد في أن نبحث له عن محملٍ مناسبٍ.

ثانياً: ينبغي أن نقيم فيما بيننا قيم التناصح والتواصي على الحقّ والصبر عليه:

قد يأتيني من يرمي أحداً بالاضطراب والتغيّر، راجين منّي أن أخاطبه؛ فأقول لهم: هل ذهبتم إليه، فأَغلقَ الباب دونكم؟ هل راسلتموه؟ هل هاتفتموه؟ في كلّ ذلك يقولون: لا، لا. فأقول لهم: اذهبوا إليه؛ فإن منعكم، أو ردَّكم، أو صدّكم؛ فأنا على استعداد لمخاطبته. فهذه الرُّوح السَّلبية هي المشكلة الكبيرة، فطلاب العلم ينبغي أن يكون بينهم التناصح، والتواصي بالحقّ، والصبر عليه، وإذا

سمعوا عن أخيهم شيئاً، كرهوه منه؛ ينبغي أن يسارعوا إليه، لينصروه، على مقتضى الحديث الشريف: (**انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِماً أَوْ مَظْلُومًا، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ الله، أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا، أَفَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ظَالِماً كَيْفَ أَنْصُرُهُ؟ قَالَ: تَحْجُزُهُ، أَوْ تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ**) [1]، فالمناصحةَ المناصحةَ يا إخوة الإسلام!

ثالثاً: ضرورة الاجتهاد في تحقيق نيّة الإصلاح:

ثمّة ملحظٌ في قوله تعالى: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ﴾ [النساء: ٣٥]، ليتنا نتحرّاه، عندما نهمّ بنصح أحد إخواننا، أو وصيّته، ليستيقن أنا لم نُرِد إفحامه، ولا أردنا إحراجه، وقد رُوي أنّ عمر ﷺ الفقيهُ الملهَم المحدَّث، أرسل رجلين ليُصلحا بين زوج وزوجة، فرجعا دون أن يُحقّقا شيئاً، قيل: فعاقبهما عمر! قالوا: لماذا؟ قيل: لأنَّ الله ﷻ يقول: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا﴾ أي الحكمين، ﴿يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ﴾، وهو أحد الوجهين في التفسير، وقد روي «عن ابن عباس: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ﴾ قال: هما الحكمان،... وعن مجاهد قال: أما أنه ليس بالرجل والمرأة، ولكنَّه الحكمان»[2].

وحدّثني أحد طلاب العلم، أنه قد عُرض عليه أن يقوم بمهمّة الإصلاح بين فريقين من الناس، في مشكلةٍ عويصةٍ، استعصت على الحلِّ سنواتٍ، وأطرافها أناس أخيار، وبعضهم طلاب علم، فيحكي

(١) متفق عليه، البخاري: (٦٩٥٢)، ومسلم: (٢٥٨٤).

(٢) الدُّرُّ المنثور: [٢/ ٥٢٦].

أنه انشغل بهذا الأمر كثيراً، واهتمّ له، واغتمّ به، ويُقسم بعض أطراف هذه القضية، أنّ محدّثي هذا، قد مرّت عليه أيّام، ولم تكتحل عيناه بمنام، فكان يتساءل: كيف له أن يحلَّ مثل هذه القضية العويصة المستعصية؟

وقدّر الله أنّ أحد طلاب العلم، ممّن كان حوله ألقى في مسمعه هذه الآية الكريمة: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾ يقول: فأضاء لي ضوءٌ في نهاية النفق المظلم فاتّبعتُه، فاجتهدتُ في أن أُصلح ما بيني وبين الله، فإذا بخيوط هذه القضية المستعصية تنحلُّ في وقت قصير!

مراجع مهمّة:

ثمّ في ختام هذه الجولة المنهجيّة، ومن أجل تعميق النظر في مختلف القضايا، التي تمَّ تناولها أحيلكم إلى بعض الكتب المهمة في هذا الموضوع، وهي ثلاثة كتب:

١. فاستقم كما أُمرت، للشيخ: عبد العزيز الجليِّل.

٢. الثبات والشمول في الشريعة، للدكتور: عابد السفياني.

٣. الثوابت والمتغيرات، للشيخ: صلاح الصاوي.

وهناك غيرها الكثيرُ من كتب أهل العلم، تُعينكم - بإذن الله - في إدراك بعض ما أشرتُ إليه.

أسأل الله أن يحفظنا وإيّاكم، ويُثبِّتنا وإيّاكم، وأن يجعل عملنا خالصاً لوجهه الكريم، وأن يَقينا الفتن ما ظهر منها وما بطن، سائلاً

كلَّ من اطّلع عليه، أن يبذل العفو والسماح، لكاتبه لما فيه من خطأ، أو تقصير، أو عبارة، لم أقصدها، ولم أُرد معناها، أو لازمَ معناها، لكنَّها أخطاء البشر.

وآخر دعوانا أن: الحمد لله رب العالمين، وصلّى الله وسلم على نبيّنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم.

٢- سنن البيهقي الكبرى، لأحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز - مكة المكرمة: ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م، عدد الأجزاء: ١٠.

٣- فتح القدير، لمحمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشَّوكاني اليمني (ت: ١٢٥٠هـ)، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، ط١: ١٤١٤ هـ.

٤- تفسير القرآن العظيم = تفسير ابن كثير، لأبي الفداء عماد الدين إسماعيل بن كثير الدمشقي، دار الفكر - بيروت - ١٤٠١هـ.

٥- التحرير والتنوير، لمحمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت: ١٣٩٣هـ)، الدار التونسية للنشر - تونس، ١٩٨٤هـ، عدد الأجزاء: ٣٠.

٦- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لأبي الفضل محمود الآلوسي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، عدد الأجزاء: ٣٠.

٧- سنن أبي داود، لأبي داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (ت: ٢٧٥هـ) تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، عدد الأجزاء: ٤.

٨- وكانوا لنا عابدين، أ.د: ناصر بن سليمان العمر.

٩- دروس:(إنَّ إبراهيم كان أمَّة)، أ.د: ناصر بن سليمان العمر.

١٠- زاد المسير في علم التفسير، لعبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، المكتب الإسلامي- بيروت، ط٣: ١٤٠٤هـ، عدد الأجزاء: ٩.

١١- حقيقة الانتصار، أ.د: ناصر بن سليمان العمر.

١٢- لحوم العلماء مسمومة، أ.د: ناصر بن سليمان العمر.

١٣- الدر المنثور، لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ)، دار الفكر - بيروت، عدد الأجزاء: ٨.

١٤- الموطأ، مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني (ت: ١٧٩هـ) تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي، مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية - أبو ظبي - الإمارات، ط١: ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م، عدد الأجزاء: ٨.

١٥- دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، لأبي بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني البيهقي (ت: ٤٥٨هـ)، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١: ١٤٠٥ هـ، عدد الأجزاء: ٧.

١٦- السيرة النبوية، لأبي محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري(ت: ٢١٣)تحقيق: طه عبد الرءوف سعد، دار الجيل - بيروت، ط١: ١٤١١هـ.

١٧- الموافقات، لإبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي (ت: ٧٩٠هـ).

١٨- العقد الفريد، لأبي عمر شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه، المعروف بابن عبد ربه الأندلسي (ت: ٣٢٨هـ)، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١: ١٤٠٤هـ، عدد الأجزاء: ٨.

١٩- تاريخ الخلفاء، لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ) تحقيق: حمدي الدمرداش، مكتبة نزار مصطفى الباز، ط١: ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م، عدد الأجزاء: ١.

٢٠- السنة، لأبي عبد الله محمد بن نصر بن الحجاج المَرْوَزِي (ت: ٢٩٤هـ) تحقيق: سالم أحمد السلفي، مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت، ط١: ١٤٠٨هـ، عدد الأجزاء:١.

٢١- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط١: ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، عدد الأجزاء: ٢٦.

٢٢- الجواهر الحسان في تفسير القرآن، لأبي زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي (ت: ٨٧٥هـ) تحقيق: الشيخ محمد علي معوض، والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط١: ١٤١٨هـ.

٢٣- الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء، « مالك والشافعي وأبي حنيفة - رضي الله عنهم -» لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (ت: ٤٦٣هـ) دار الكتب العلمية - بيروت، عدد الأجزاء:١.

٢٤- صحيح مسلم بشرح النووي، لأبي زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (ت: ٦٧٦هـ) دار إحياء التراث العربي - بيروت - ط٢: ١٣٩٢هـ.

٢٥- مجموع الفتاوى، لأبي العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني(ت: ٧٢٨هـ) تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف- المدينة النبوية- المملكة العربية السعودية، ١٤١٦هـ- ١٩٩٥م.

٢٦- سنن ابن ماجه، لأبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني(ت: ٢٧٣هـ) تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي، عدد الأجزاء: ٢.

٢٧- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، لأبي حاتم محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبد التميمي الدارمي البُستي (ت: ٣٥٤هـ) تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة- بيروت، ط٢: ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م، عدد الأجزاء: ١٨.

٢٨- مسند الشَّاميين، لأبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي الطبراني (ت: ٣٦٠هـ) تحقيق: حمدي

بن عبدالمجيد السلفي، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط١: ١٤٠٥هـ- ١٩٨٤م.

٢٩- الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي، لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (ت: ٦٧١هـ) تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية - القاهرة، ط٢: ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م، عدد الأجزاء: ٢٠.

٣٠- تاريخ مدينة دمشق، وذكر فضلها، وتسمية من حلها من الأماثل، لأبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي، تحقيق: محب الدِّين أبي سعيد عمر بن غرامة العمري، دار الفكر - بيروت - ١٩٩٥م.

٣١- سيرة الإمام أحمد بن حنبل، لأبي الفضل صالح أحمد بن حنبل، تحقيق: الدكتور فؤاد عبد المنعم أحمد، دار الدعوة - الإسكندرية - ط٢: ١٤٠٤هـ.

٣٢- الجامع الصحيح المختصر، لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي، تحقيق وتعليق: د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة - بيروت، ط٣: ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، عدد الأجزاء: ٦.

٣٣- سنن الترمذي، لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك الترمذي (ت: ٢٧٩هـ) تحقيق وتعليق: أحمد

محمد شاكر- محمد فؤاد عبد الباقي- إبراهيم عطوة عوض، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ٣٤- مصر، ط٢: ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م، عدد الأجزاء: ٥.

٣٥- فقه الواقع، أ.د: ناصر بن سليمان العمر، دار الوطن للنشر، الرياض: ط١: ١٤١٢هـ.

٣٦- شرح منتهى الإرادات، لمنصور بن يونس بن صلاح الدين بن حسن بن إدريس البهوتي الحنبلي (ت: ١٠٥١هـ)، عالم الكتب، ط١: ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م، عدد الأجزاء: ٣.

٣٧- المجموع شرح المهذب، لأبي زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (ت: ٦٧٦هـ) دار الفكر.

٣٨- مسند الإمام أحمد بن حنبل، لأبي عبد الله أحمد بن حنبل الشَّيباني، مؤسسة قرطبة - القاهرة، عدد الأجزاء:٦.

٣٩- المعجم الكبير، لأبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي الطبراني (ت: ٣٦٠هـ) تحقيق: حمدي بن عبدالمجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية - القاهرة، ط٢، عدد الأجزاء: ٢٥.

٤٠- إعلام الموقعين عن رب العالمين، لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين، ابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ)، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١: ١٤١١هـ - ١٩٩١م، عدد الأجزاء: ٤.

٤١- المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، لأبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت: ٢٦١هـ) تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، عدد الأجزاء: ٥.

٤٢- نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار شرح منتقى الأخبار، لمحمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشَّوكاني اليمني (ت: ١٢٥٠هـ)، دار الجيل - بيروت، ١٩٧٣م.

٤٣- المستدرك على الصحيحين، لأبي عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النَّيسابوري المعروف بابن البيع (ت: ٤٠٥هـ) تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١: ١٤١١هـ- ١٩٩٠م، عدد الأجزاء: ٤.

٤٤- مناقب الإمام الشافعي، لأبي الحسن محمد بن الحسين بن إبراهيم بن عاصم، الآبري السجستاني (ت: ٣٦٣هـ) تحقيق: د: جمال عزون، الدار الأثرية، ط١: ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م، عدد الأجزاء: ١.

المحتوى

المقدمة	٥
بين يدي الكتاب	١١
أولا: أسباب طرح الموضوع	١١
ثانيا: معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾	١٧
مقدّماتٌ مهمَّة في فهم المنهاج	٢٠
١. ما هو المنهاجُ الذي ندعو إليه؟	٢٠
٢. المنهاج يعني القضايا الكليَّة واضحة الدِّلالة، ويشمل الأمور العلميّة والعمليّة	٢١
٣. التمييز بين تقرير المنهاج، والحكم على الآخرين	٢٣
٤. المنهاج يتعلق بمجموع أقوال السّلف في المسألة المعيّنة	٢٤
٥. المنهاج يقتضي النظر إلى جملة النصوص الواردة في المسألة	٢٦
٦. التحذير من مدرسةٍ جديدةٍ في المنهاج	٢٨
٧. قاعدة مهمّة في الحكم على الأشخاص	٣٠
٨. الأزماتُ تبيّن معادن الرجال، وتكشف حقيقةَ إيمانهم بمواقفهم	٣١
٩. هل الأحداثُ هي التي تصنع المنهاج؟ أم المنهاج هو الذي يصنعُ الأحداث؟	٣٢
أسبابُ الاطِّراد والثبات على المنهاج	٣٦

١. الإخلاص، وصدق النية، وإرادة وجه الله، ومجاهدة النفس على ذلك	٣٨
٢. القناعة الراسخة بمنهجه الذي يسير عليه	٤١
٣. سلامة الأصول والمنطلقات التي يُبنى عليها هذا المنهاج	٤١
٤. الحرص على الاجتماع وعدم الفُرقة	٤٤
٥. مراعاة الزمان، والمكان، والأحوال، والقدرة على التجدد والتجديد دون ابتداعٍ، أو تحريف	٤٥
٦. الوضوح والبيان والبعد عن المجملات والعمومات مع تحديد الأهداف بموضوعيَّة وصفاء ونقاء	٤٧
٧. الاعتدال، والواقعيَّة، والوسطيَّة، والتوازن، بلا إفراط، ولا تفريط	٥٠
٨. التلازم بين القول والعمل، والانسجام بين الظاهر والباطن	٥٤
٩. التيسير المنضبط، وسعة الأفق، والبعد عن التشديد، والتَنطع	٥٥
١٠. البعد عن التبعية والتقليد والتعصُّب والحزبيَّة	٥٨
١١. التقوى، والورع، والصدق، والشجاعة، ومجاهدة النفس	٥٩
١٢. المراجعة المستمرَّة، والتقويم المطَّرد، ومحاسبة النفس	٦٠
١٣. الرُّجوع إلى الراسخين في العلم، والتلقِّي عنهم، والإفادة منهم	٦١
١٤. التدارس، والتشاور، والتعاون مع أصحاب الاختصاص والشأن، من المعروفين بسلامة المنهج	٦٣

١٥. الإفادة من سير السابقين، ودراسة أسباب الاطِّراد والثبات عند الأئمة والمجددين	٦٦
١٦. دراسة الأخطاء التي وقع فيها المصلحون	٦٨
١٧. التخطيط السليم يُساعد على اطِّراد فقهِ الواقع	٦٩
١٨. تصوُّر عقبات الطريق، وما يكتنف طريق الحق من شدَّة وعناء	٧٠
١٩. دراسة فقه الجماهير	٧١
٢٠. من هم الجماعة؟	٧٤
٢١. الاستعداد للتضحية، في سبيل المبادئ والأهداف	٧٨
٢٢. قوة الصلة بالله ﷻ، والالتجاء إليه، مع سؤاله الهداية والتوفيق والسداد	٧٩
آثار الاطِّراد في المنهج	٨٣
١. تحقيقُ مبدأ الاقتداء	٨٣
٢. استحقاقُ ثناء الله تعالى	٨٤
٣. طاعة التوجيه النبوي بالتزام السنّة المطهّرة	٨٤
٤. ثقة المؤمن وتثبُّته من صحّة المنهج الذي يتبعه	٨٤
٥. وضوحُ معالم المنهاج، وحُسن تقبُّله، والالتزام به، ونشره، والدعوة إليه	٨٦
٦. القدرة على تخطّي الصُّعوبات، وحلِّ المشكلات الطارئة	٨٧

٧. تحقيقُ الانتصار في الحياة، أو بعد الممات	٨٩
٨. الاجتماع، ووحدة الكلمة على منهاج الحقِّ	٩١
٩. تحقيق الوحدة الفكريّة والمعنوية بين الشيخ وأتباعه من طلاب العلم وغيرهم	٩١
١٠. امتداد الأثر الإيجابيِّ للعالم ودعوته عبر المكان والزمان	٩٣
١١. العصمة من الخلل، والانحراف، والتشتت، والتبديل، والتغيير	٩٤
١٢. تكامل الشخصية، وقوة العقل، وبعد النظر، والأهليّة للقيادة	٩٥
١٣. التوفيق، والهداية، وحسن الخاتمة	٩٦
أسباب الاضطراب في المنهج	٩٨
١. ضعف إخلاص العمل لله ﷻ، وضعف العبادة	١٠٠
٢. ضبابيَّة الأهداف، وافتقارها إلى التحرير الشرعيِّ	١٠٠
٣. قَصْرُ منهج السلف الشامل على بعض آحاده	١٠٢
٤. عدم رسوخ القناعة بالمنهاج	١٠٣
٥. عدم القدرة على الدفاع عن المنهاج	١٠٣
٦. العجلة واتخاذُ القرارات والمواقفِ الارتجاليّة	١٠٤
٧. الفرديَّة وعقلية الأنا	١٠٨
٨. الغلوُّ في اتِّباع الرُّموز، والغفلة عن منهاج الحقِّ	١٠٩

٩. اتخاذ البِطانة غير الصّالحة	١١٤
١٠. الاستجابة للضُّغوط	١١٤
١١. التناقض بين القول والعمل، وعدمُ الانسجام بين الظاهر والباطن	١١٦
١٢. عدمُ استفادة الدَّاعية من نقد الآخرين ونصحِهم في تصحيح مسيرته	١١٦
١٣. الحزبية، والتقليد، والتعصب للأشخاص، والهيئات، والجماعات، والأجناس والبلدان	١١٩
١٤. اتِّباعُ المتشابِه، وتركُ المحكَم	١١٩
١٥. التعلُّق بالدنيا، واتّباعُ هوى النفس	١١٩
١٦. اعتقاد أنّ النتائج مقياسٌ لنجاح الدعوة	١٢١
١٧. طول الأمد مع الغفلة عن القلب	١٢١
١٨. التنافس غير المحمود، وكثرة الجدل، والمراء بين الدعاة وطلاب العلم	١٢٢
١٩. الاختلاط بأهل الأهواء، والبدع، والتأثر بمناهجهم وطرائقهم	١٢٣
٢١. عدمُ مراعاةِ التدرُّج في تحقيق الأهداف، ومجافاةُ الحكمة والأناة	١٢٧
٢٢. عدم اعتبار تغيُّرِ الأحوال والأماكن والأزمان المؤثرة في الحكم	١٢٩

٢٣. قلَّةُ الصبر، وعدمُ التحمُّل، واليأسُ، وسوءُ الظن بالله ﷻ	١٣٠
٢٤. تعظيم الخوف من المخلوقين	١٣٠
٢٥. السقوط في مستنقع المعاصي والآثام	١٣١
الآثار العامَّة والخاصَّة للاضطراب في المنهاج	١٣٣
١. أنه انحراف عن الصراط المستقيم	١٣٣
٢. أنه مُضيِّعٌ للجهود، مُبعثِرٌ للطاقات	١٣٤
٣. أن فيه إثارةً لشماتة الأعداء، وإحباطاً للمحبِّين والأصدقاء	١٣٤
٤. أنه يؤدّي لتفرق الكلمة، واختلاف القلوب، ونشوء العداوات	١٣٥
٥. يَبُثّ الشُّعور بالحيرة، والحسرة، واليأس، في نفوس الأتباع والتَّلاميذ	١٣٥
٦. يوسِّع من دائرة المراء، والجدل، والخصومات بين الدُّعاة	١٣٦
٧. يُضعف ثقةَ الناس في الدُّعاة، وطلاب العلم	١٣٧
٨. يجعلُ الدَّاعية عاجزاً عن التعامل السّليم مع الأحداث والمستجَدَّات	١٣٨
٩. يدفع أعداء الدعوة وخصومها إلى الطمع في مزيد من التنازلات	١٣٩
١٠. انتقال القيادة الحقيقية من أيدي العلماء إلى أيدي الجماهير	١٣٩
١١. أنه سببٌ للخذلان وسوء الخاتمة	١٤٠

تنبيهاتٌ مهمَّة	١٤٤
١. ينبغي التحقيقُ في دعوى الاضطراب عند الحديث عن رجوعِ عالم عن أخطاء وقع فيها	١٤٤
٢. الوقوع في الأخطاء لا يُعدُّ اضطراباً في المنهج	١٤٤
٣. التغيُّر في حدّ ذاته ليس مذموماً	١٤٥
٤. المجتمعات تختلف، بل كلُّ مرحلةٍ من مراحل المجتمع قد تتميّز عن غيرها	١٤٦
٥. أهميَّة دراسة مراحل الدعوة في كلٍّ من العهدين المكّيّ والمدنيّ	١٤٦
٦. إيضاحُ المنهج وبيانُه قد يقتضي الحديثَ عن الأشخاص	١٤٨
٧. خطورة الإسقاط	١٤٨
٨. احذروا من تحطيم القدوات.	١٤٩
٩. حساسيّة الحديث عن الشخصيّات	١٥٠
١٠. قولنا عن أحد الأئمّة والعلماء أنه صحيحُ المنهج لا يعني العصمة	١٥٧
١١. إنَّ الله ناصرٌ دينَه	١٥٩
كيف نتعامل مع من اضطرب منهاجه؟	١٦٠
أولاً: ينبغي أن نتثبت: أحقّاً قد اضطرب منهجاه، وتغيّرَ تغيُّراً سلبيّاً أم لا؟	١٦٠
ثانياً: ينبغي أن نقيم فيما بيننا قيم التناصح والتواصي على الحقّ والصبر عليه	١٦٠

ثالثاً: ضرورة الاجتهاد في تحقيق نيّة الإصلاح	١٦١
مراجع مهمّة	١٦٢
المصادر والمراجع	١٦٥
المحتوى	١٧٣